عبد الكريم جويطي

ليل الشمس

روابة

المركز الثقافي العربي

مكتبة نوميديا 100
Telegram@ Numidia_Library

عبد الكريم جويطي

ليل الشمس

حازت هذه الرواية على جائزة
اتحاد كتّاب المغرب للأدباء الشباب للعام 1991.

عبد الكريم جويطي

ليل الشمس

روايـة

المركز الثقافي العربي

الكتاب

ليل الشمس

تأليف

عبد الكريم جويطي

الطبعة

الثانية، 2019

عدد الصفحات: 160

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-922-7

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 212 522 305726+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 961 1 343701+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إلى أخي عبد العزيز

(طرق تلدُ طرقاً في امتداد لا نهائي، العطش والجوع والعطش، والأمهات يشددن الصغار من حين لحين إلى صدورهنّ، ويمسحن الغبار والعرق عن عيونهم ويبكين، والرجال على مبعدة من ركب النساء، يخوضون حروبهم بصمت من أجل جرعات ماء وقليل من الطعام، ويستطلعون الطريق، طرق لا تلدُ إلا الشموس الحارقة. تضيق الصدور، وتترمد العيون، وتنفت البهائم دموعها في سكون. أناس يسوقهم الجنون وحده إلى حيث لا يدري أحد، البحر أو صحارٍ أخرى، أما الأمكنة المحلوم بها فقد توارت خيالاتها في القلوب).

من بلغ الخبر؟! جروا، داسوا الشوك وتعرقبوا في الحفر، ورأوه قرب مغارة سيدي مول الواد، يتدلّى من فرع شجرة الصفصاف. رأوا البلغة المهجورة تحته، والعمامة الملقاة. ورأوا وجهه الأزرق ولسانه الغليظ الذي يتدلّى من فمه كالباذنجانة، وعينيه رأوهما ناتئتين في وجهه، تحدّقان في فراغ الوجهتين اللتين يأخذه إليهما تمايل جسمه. ماذا وقع له؟ كيف جرؤ؟ بالأمس، كما عهدناه، صلّى بالناس ولم يكن أبداً مهموماً، حيّانا وابتسم في وجوهنا. كم وعظنا حين ترّجنا الرزايا ونبكي بلا انقطاع. يقول: لا شيء يستحق أن يحزن الإنسان من أجله. بأي كلام أقنعت نفسك؟ ما هي آخر كلماتك؟ نرى يديك مستسلمتين على جنبَيك، ونرى الجلباب ممزّقاً من فتحة الصدر ونبكي. ارفع يديك كما رفعتهما وافتح قلبك الصافي لنا. قُل إنك تمزح، وستخفق قلوبنا، ونحيط بك راضين مهلّلين، ونعود إلى الدوار فرحين نمسك بك من أطراف الجلباب ونقرصك من أذنك، ونخزك من خلف، كما سرنا بك يوم ختمت القرآن.

قادم في الظلام

من ذا الذي يشقُّ طريقه في الظلمة الشفيفة ويلتفت بخفّة إلى جانبيه؟ من ذا الذي يقف في العتمة بعد سيره المتعثِّر ويلوي عنقه إلى الوراء ويحدّق، كأنه يريد أن يعود من حيث أتى؟ ثم يقرفص ويضع الدراجة جانباً، ويقرأ في كفّ الأرض المخضب بالظلام. أيقرأ تضاعيف الماضي واحتمالات المستقبل؟ من ذا الذي يسوي حنكه بشقوق الأرض ويستمع، أيستمع إلى دبيب وهسيس الهوام في الشقوق، أم إلى الهمس الملتاع العالق بالأرض والآهات المخنوقة؟ وهذه الهمهمة، أهي صلاة أم اختناقات بكاء؟ من ذا الذي يدخل الدوار في هذا الوقت من الليل حاملاً دراجته فوق كتفه وحاثاً الخُطى، لكي لا يسمعه ولا يراه أحد؟ عرفَته أمه تماماً كما كانت تراه في الحلم سقيماً مخذولاً يسير وحيداً في الظلام.

رجل لا يملك دمعه

النظرة المكتئبة، التي تتوقف في كل خطوة لتجمع في اضطراب بالغ منظر الدوار، الدور الواطئة البئيسة المتناثرة، والخلاء الكبير. النظرة اليائسة ذاتها، الشمس الحارقة ذاتها، الحارس الذي يقفل عائداً بعد أن يضع ما ساعد في حمله، الخطوة المتوجِّسة بين البيت والبئر والقسم. كأن لم تمضِ الآن ثلاث سنوات، وكأن سي معتصم هو الذي اجتاز الدوار، متجدّداً يافعاً بعد أن عبر محنة الانحطاط المهول، وإن كان القادم أطول قليلاً، أسمر، بسيطاً، عليه سمات أقصى درجات الضياع الجدير بالشفقة. فلما قفل الحارس عائداً تهاوى فوق أمتعته، واحتضن رأسه بين كفّيه وتابعه بعينَين مليئتَين بالخيبة. جاء سي معتصم، متماسكاً يرقب بسخرية داعرة كل شيء من وراء نظارة سوداء، ظلّت تحجب عينيه حتى قيل به حول، وتستصحبه هالة من التسامي والرفعة، يعلّق في فمه غليوناً مذهلاً، الترف الوحيد الذي تشبّث به بعد المحنة، وإن أخذ يستعين مرات عديدة بالسبسي، أو يضمخ تبغه الأحمر الناعم بحبّات الكيف الدقيقة. جاء سي معتصم كأمير طريد بين حاشية

لمّها على عجل، الحارس الذي قضى الطريق كلها وهو يكيل له اللعنات، ولمّا ألقى بالحمل في تأفُّف واضح هرول عائداً من دون كلمة وداع، والكلب الرومي الرشيق المبرقش الذي قهره الحرّ، فاكتفى بتتبّع الظل الهزيل الذي يوفّره الرجلان، وجسده النحيل يهتزّ للهاثه المتلاحق، بينما تدلّى لسانه على طوله يلعق الهواء الراكد. والطائر الصغير المنزوي في ركن القفص، حاضناً قلبه بجناحيه، مجمداً من الحزن والمرارة، لدرجة أنه يوشك أن يسقط في كل مرة للهدهدة القوية التي تحدثها مشية سي معتصم المتعثّرة في الحصى، ولم يحاول أن يتشبّث بالأسلاك. كان لما تتجمع المرارة كل يوم في أعين الفلاحين وهم يستطلعون السماء، ويشيعون الشمس العدوة الغاربة، يسحب مرارته إلى جانب الوالي، فيقرفص هناك حيث مغارة سيدي مول الواد والدغل الذي يلفّها في رهبة وسكون. قد تفيض عيناه بالدموع، دموع لا تعادل حرارتها إلا تلك الفائضة في صمت المغارة وركودها من شموع الثكالى والأيتام والمكسورين. بينما يمضي الكلب جارياً على طول الشريط الهزيل للنهر يجري وقلبه في لسانه يغوص في المياه المثقلة بالأتربة الحمراء، أو يستسلم للنباح المسعور، وسي معتصم يحدّق في الفراغ أو يغرِق رأسه بين ركبتيه ويسلّمه لقدره، وللقرادات تأكل لحمه فيتمرغ في التراب كأي كلب بلدي ضال، أو ينهش جلد جيفة، ويصارع العالم بنباح غليظ ومجهِد، ويركض وقد ركبت صدره كل الشياطين وراء كلبة في ليالي الدوار الطويلة. ولمّا تهجر الشمس لتوها الدغل ويكون هناك متسع لديها لتنشر ما تبقى من عفنها

على الدوار، يلقي سي معتصم رجليه في المسرب الموشوم بخطى الفازعين في اللحظات الحالكة لسيدي مول الواد. ولا مناص من أن تتقاطع الخطى رغم الضيق الذي تسبّبه له عيون الصبايا الضاحكة وهي تختلس له النظر من فوق الحمير والبغال والعربات في رحلة العودة الخائبة أبداً من المزارع البعيدة، ولكنهنّ مشرقات، وعيونهنّ تطفح بالمرح، وقلبه هو يحترق والليل يتجمع فيه، هو المثخن بالنعمة والترف رغم النظرة المنكسرة والعينَين المحمرّتَين من البكاء. فلا يداه تشبه الجذور الميتة، ولا ثيابه تزكم الأنوف بسيول العرق المتصفّد الممتزجة بالتراب، ولا تقاسيم وجهه تشيع الحنق والفضاضة. إن الرقة والجدولَين الصغيرَين اللذين لم يفارقا عينَي سي معتصم حتى رحل هما اللذين نصباه معبوداً لا يجارى لنساء الدوار وموضوعاً لسخرية لا تنتهي من طرف رجاله، ففي الغروب ستجد من تحث الخطى من المزارع البعيدة، ومن تصعد للسطوح، ومن تتوارى خلف الباب المفرج قليلاً، ومن ترى في الزهور الحمراء الصغيرة التي نبتت رغم أنف الشمس الحارقة بمحاذاة المسرب الذي يجتازه كل مساء وليداً للرقّة الكبيرة التي أودعها الله في عينَي سي معتصم الباكيتَين.

جفاف

1- جفاف / الأرض.

شاء الله أن تمحل الأرض وتتشقق ويصعد، في كل مرة وبعد الظهر ببطء، ضباب كثيف وجاف يحتقن معه الجو حتى ليكاد ينفجر وتتحرك من جهة الشرق ريح قوية ساخنة تنكس الأرض حاملة معها الأتربة تتعذر الرؤية والتنفس وتختنق الأعشاب القليلة، وما تكاد القطرات القليلة التي قد يجود بها الضباب العاقر تسقط حتى تبتلعها الأرض وتمضي البهائم في رحلة مضنية وراء أعواد تبن باقية، ليفضّل الكسّابة في الأخير أن يتخلصوا منها بأي ثمن. ويتوارى الفلاحون خلف جلابيبهم وهم يرون الحبوب التي ألقوا بها على بركة الله، لعلّ المطر يسقط الليلة أو غداً، تأكلها الطيور، ويغيض الماء في الآبار فيتتبعونه بالحفر أمتاراً كثيرة. يتسلل البعض للمدينة، ويقصد الباقون القرض الفلاحي، يستجدون قرضاً سيكلفهم أرضهم.

ما أقسى الجفاف يا رب! وما أقسى تلك النظرة في عيوننا لزرقة السماء القاتلة، لقد انهار النهر الجبّار، ولم يعد سوى شريط هزيل تتدحرج فيه المياه المثقلة بالتراب.

2- جفاف / النهر.

لقد انهار النهر الجبّار ولم يعد سوى شريط هزيل يأكل نفسه ويعترضه الأطفال بأكفّهم الصغيرة بينما يستلقي المجرى الكبير اليابس على جانبيه كيدين مشلولتين. لم يعد النهر يخيفُ أحداً، ولا حتى الصفاية التي كانت تمنح الدوار كل يوم جثة زرقاء ومنتفخة أصبحت الآن مهجورة لا يكاد يطلُّ عليها أحد، لا تعترض أسلاكها إلّا الحشائش والتراب. مضَت الأسماك ولم تعد الشباك التي تلقى في يأس تلتقط إلّا الضفادع الكريهة. وأخذ عمي سعيد صاحب «المعدية» الوحيدة يرقب في حوش داره القرب المتيبسة ويرقب الأنين الخافت للنهر وهو لا يقوى على تتبّع التواءاته القديمة حتى يخيل له بأنه سيتوقف ويستقيل من هذا العذاب. كان النهر يجتاح الحقول القريبة ويمتطي الجسر الصغير ويعزل الدوار عن العالم أياماً ليتملّى فيها موكب النهر الرهيب، الجثث، الأشجار المقتلعة من الجذور، الخيام، أشياء أناس الأعالي الصغيرة والكبيرة. بلا بداية ولا نهاية هو النهر، رعب يأتي من المجهول ويغيّر جلده ليصبح لا شيء. أيستيقظ أهل الدوار في يوم قريب ولا يجدونه؟ أيحمله مبارك المعتوه -كما أقسم- في يوم ما في جيبه ويهرب من الدوار؟ هناك إحساس فظيع لقد انتهى زمن النهر بلا رجعة.

3- جفاف / البئر.

لم يصدّق أحد، كان طعم الماء يتغيّر باستمرار في الآبار العليا حتى صار ينبت في الأفواه مرورة كاملة، وصار يسيل

اللعاب خيوطاً رفيعة لا تنقطع، حتى أصبح أصحاب الآبار مثل كلاب مسعورة تغمر عيونها هالة صفراء. أخذوا ينتقلون تباعاً للمدينة لعلاج كحّة قاتلة وإحساس مريع بالتعب، كانت المرورة تتقدم بشكل منتظم وفي كل مرة كان يسقط بئر آخر، وها هي الآن أتت على آبار الدوار وقصدت المزارع، ولما يطأ الواحد منا الأرض. كان يوقن أن شيئاً غامضاً ورهيباً يتحرك تحت. جاءوا وأخذوا عينات وراحوا وجاء آخرون وفعلوا مثلهم، ولم نرَ بعد ذلك وجوههم.

لن تكون إلا لعنتك يا رب، فمياه النهر تصلنا بلا طعم ونصفها تراب وصارت آبارنا القديمة الحميمة فوهات تطعننا مباشرة في القلوب.

تسخير الشياطين في وصل العاشقين

لقد رأى الفقيه ما روّعه حقاً، وأذهله طوال النهار حتى أنه لم يحرّك الإبرة ولا الخيط الرفيع ونسي الغذاء. ولمّا أفلت الشمس دهش واستحيا أن يبقى مسمّراً والجلباب في حِجره غير ممسوس، استغفر الله ونهض وهو موقن أن الشيطان استولى عليه وأنه لن ينام، وحتى إذا غفا قليلاً فيستوجّب عليه أن يتوضأ الوضوء الكبير عند الفجر.

وفي الصباح لما خرج بخطوات متباطئة ومجهدة، غير حامل معه كعادته لا الجلباب الذي يخيطه ولا الصندوق الذي يضع فيه الإبرة والخيط، بوجهه المتغضن الشاحب ذي العينين الذابلتين اللتين كانتا تشعُّ منهما في هذا الصباح وفي الصباحات التالية حرارة غريبة، رغبة نارية أجلست الفقيه مرفوعاً، لا هو من أهل السماء ولا هو من أهل الأرض، ليبقى هكذا طوال النهار ملاحقاً من طرف النظرات المتصفّحة التي استعصى عليها فهم ما يجيش به صدر الفقيه ويصرفه على شكل دفعات تنهدات تزخر باللوعة والحزن. ولمّا رجع في المساء إلى الدار متضائلاً، بعينَيه المفعمتَين بالانطفاء. عاودته الحمّى، شديدة هذه المرة، فظلَّ

الليل كله يرتعد تحت الفراش ويهذي بما رأى، وسحابة البخّور، والمتحلقين الواجمين يهبون المشهد جوّاً جدّياً وقدسياً، لولا الكلمات القليلة الحياء التي يزدحم بها فم الفقيه في انتفاضاته المتلاحقة. أكان غير ذلك؟ يمضي بخطى وجلة في طريق استوطنها الشيطان وأثقلها بالسوء والفحشاء، يدفع جسده الثخين الذي أورثه شعوراً بالضعة وراء أقرانه الذين مضوا بعيداً. مورد الخدين، طرياً، حتى أنه لم يكن قادراً إلا على البكاء، والانزواء بعيداً ليقرِّر أبوه، لما رأى أنه ضائع لا محالة دفن إخفاقه في صدر سيدي عزيز، الفائض أبداً بالمأثورات والسير والتواريخ، وفي امتداد الصوت الرخيم المتفنّن أبداً في إعطاء كل ذي حقّ من الحروف حقّه، في بحر الحكمة الملتهبة تملّك يوماً بعد يوم، سنة بعد سنة، معرفة لا تجارى بشؤون الآخرة والدنيا، يقتر كثيراً في إبرازها، وجرياناً للآيات في فمه بسرعة ويسر أثناء المآدب وفي ليلة القدر أو فوق قبر ميت، كما تجري المياه في أرض أتخمها المطر، لذلك لمّا توفي سيدي عزيز، توّج بالإجماع فقيهاً لمسجد متهالك لا يكاد يسع عزلته في صلواته.

رفع رأسه. من يا ترى كان سيعرف الفقيه في هذا الصباح بثيابه الداخلية فقط، حافي الرأس واقفاً في باحة داره، باكياً، بإكليل العرق البارد الذي يتفجر من جبهته العريضة على شكل حبات لؤلؤية تنساب إلى أن تغيض بين الشعيرات الصهباء التي انتظرت كثيراً ما يشبه معجزة لتنجو من الموسى الحادة؟ من يا ترى؟ أريد برهاناً يا رب، أرني برهاناً، كانت السماء عالية بزرقتها الباهتة عالية بامتداد لا يطاق، باردة. ولم تتحرّك

السماء، اللهم هذه النقطة العصية المارقة كالبرق، والتي خلفت شيئاً لزجاً ودافئاً بين عينَي الفقيه المغمضتَين، عليك اللعنة أيها الطائر الخسيس.

وأجهش بالخطوات إلى هناك، الدايم الله، خطوات واهنة مستحيلة يلقيها ثقيلة متردّدة كأنه يريد أن يثبتها في فراغ سحيق، وقلب محموم مفعم بشيء من التلذُّذ، ففي حمّى الاقتلاع، في خضمّ الرجة من كان سيعرف الفقيه الهادئ الذي يمضي الساعات الطوال متتبّعاً الخيط الرفيع والإبرة الدائبة الحركة، متتبّعاً الظل في هروبه الأبدي، والذي ينط الدم من خديه في كل مرة يحرج فيها كالعذراء، الفقيه الطافح بالعرق على الدوام، النكِد، المنغِّص، الوقور، الخبيث، خبثاً لا يزيد حدّه عمّا تستلزمه حراسة كلمة الله بين أشباح معرضة.

ثم، وبعد أيام، أوشك أن يموت. فحار في أمره الفقهاء المجلوبون من الدواوير الأخرى، والمتنادبون على القراءة فوق رأسه، والمدبجون لعالم من الجداول والحجابات يعلّق بعضها في عنق الفقيه، ويمحى البعض الآخر في إناء مملوء بالماء يشرب المحتضر بعضه ويمرّر البعض الآخر على أطرافه. لقد علق الفقيه وشرب ما لو كان ينفع لأحيا العظام وهي رميم، غير أن عظامه ظلّت هامدة تحت لفائف الجلد المترهّلة. وكان أن فرج بين رموشه ذات صباح، وجال بصعوبة في الغرفة، مثل عينَي جرو يبحث عن ثدي أمه، ولمّا سقطتا على صدره، كان هناك حجاب ملفوف في قطعة ثوب بيضاء، يرقد فوق الصدر اليابس حيث يؤدّي القلب المخنوق دقّاته بعسر شديد، قبل أن

ينتفض بعنف مثل الذبيحة. لقد التمعت الفكرة بشكل خاطف فهبَّ ملهوفاً، مرتجفاً، وأخرج الله الحي من الميت، متهالكاً إلى حيث يمتزج الإهمال بطبقات الغبار بخيوط العنكبوت، بهياكل الهوام الميتة وكُتُب ذات صفرة حائلة: **الدعاء المستجاب، تحقيق الأرب، متن الأجرومية،** فضّ الفقيه بيدَين مرتعدتَين صمتها الوارف، وضاع في البخور...

وأخذ الفقيه يتحيّن الأوقات ليمرَّ وجلاً محاذراً من أمام الباب مخلِّفاً وراءه في كل مرة حِرزاً مدعوكاً بعناية يضيع بين الحجارة وقطع الزجاج الصغيرة وروث البهائم والحشائش الميتة حتى تتسلط عليه مناقير الدجاج الفاحصة أو تذيبه إحدى قوائم الدواب الداخلة والخارجة في التراب ليفرّ الشيطان رسول العشق القابع بداخله مذعوراً مدحوراً.

أُكتب، بحقّ الضحكة الفاتنة واليد الملوّحة والجسد الطري، بحقّ الثوب المرفوع فوق الركبتَين المشرع بالدعوة. اكتب، بحق أنك إنسان ابن إنسان، فكيف لذرّات قلبك اليابس العطشان ألّا تأخذها الرعشة وتهفو؟ ولشقوقه الدامية ألّا تنثر في أول القطرات كل فرح الالتئام؟ العشق انقياد الجسد وراء الجسد، حركة الروح اتجاه الروح، ومتى كانت الحركة بشوق طبيعي لم تسكن البتة، لم تسكن البتة.

الدوار

-1-

كانت الروايات التي يمكن أن تدلك على الطريق المؤدّي إلى الدوار غامضة ومتردّدة، بشكلٍ يجعلك تشك في إمكانية ذهاب أحد إلى هناك. ولمّا تأخذك الطريق الكبيرة إلى الصغيرة وتتوقف بك هذه على حافة مئات المسارب الضائعة في الخلاء توقن أنها مستحيلة. يستقرُّ الدوار على مبعدة من الوادي وكأنه نقطة حلّ لمتاهة عصية، ونهاية لغطرسة المسرب الدائمة، إذ يوحل في الشتاء وتغوص فيه الأرجل إلى الركب ويستعصي على العربات. وفي الصيف ينفلت التراب في عبث لأدنى حركة ويتطاير كثيفاً خانقاً وكأن به مسّ. وعندما تشرف على الدوار ترى مئات الدور انتابها الفناء متفرِّقة في فضاء حجري مقفر، وشجرة زيتون متهالِكة وصغيرة وحوض نعناع أصفر وشجيرات صغيرة بلا غد مأمول، ثم ترى قبّةً هناك وسط مقبرة كبيرة تحضن الدوار من فوق، فيخيل إليك أن وجود الأحياء هنا موكول لحراسة الموتى. تدخل الدوار وسط جلال الموت فيصعقك

صمت تورف ظلاله حتى العصر، كما صعق قديماً العطارين اليهود واللحّامين وعابري السبيل والغرباء فلكزوا دوابهم أو هرولوا مبتعدين. كان وجود الدوار في هذه النقطة من الأرض بالذات ملغزاً، وما يظهر الآن أنه سوء تقدير أو حماقة، كان لمّا وضع القادمون الأوائل تعب وملل تغريبتهم هنا حكمة وتبصُّراً، إذ لا يمكن تقدير حدود شطط النهر ولا تخيُّل الآن النقطة التي كان يصلها في هيجانه، وهذه الأرض الجرداء المقفرة الآن، شقّ فيها الأوائل طريقهم بصعوبة بين الحشائش الكثيفة التي تحاصرهم، والأشجار التي تحجب الشمس ملتحمين خشية الضياع والسير المتعثّر بلا أفق ولا أثر في أرض ندية رطبة. وعندما صلّى الجد الأكبر ركعتَين للاستخارة، التفت إليهم وبصوت حازم قال: «سنقيم هنا بإذن الله». دُهشَ الجميع، ولكنه قام غير عابئ وقطع غصناً واضعاً بذلك اللبنات الأولى لتأسيس الدوار. وما كان الجد يدرك أنه بفعله ذاك قد أرسى دعائم مصير قاتم يتهدّده الاضمحلال، فقد كانت رجلاه تطآن تربة منحدر تناوبت عليها السيول الجارفة طوال السنين حتى كشفت أحجاراً صلدة عارية بلا أثر للحياة.

جـابر الكيـال

هنا التفت بموازاة المدرسة، ليودّع الدوار الغافي، وأحسَّ بضربات قلبه تتدافع في صدره. كان يحصي الأمكنة، وعند شجرة الحور توقّف، أحسَّ بأنه لن يقوى على رمي رجله إلى الأمام، وأن أمله في الخلاص هباء، ولكنه سحب نفسه سحباً. وعند الوادي لمحَ محجوبة بين النجوم المنعكسة على صفحة الماء، تعترض طريقه، فخلع نعليه وشمّر عن سرواله، وانزلق إلى الماء، يمزّق سكونه الليلي، داس صورة محجوبة وصدره يرسل تنهّدات عميقة، والتفت ليراها مرة أخرى، ولكنه لم يجدها على صفحة الماء، الذي يلملم نفسه ليعاود سكونه، بل رآها خارج الوادي أمامه تنتظره.

كان يعبئ نفسه باستمرار، لن يكون الأول ولا الأخير الذي يكتوي بنار الغربة والأيام القاسية، ولكنه وهو يعود ويحصي الأمكنة نفسها، أيقن أنه الأول الذي عاد ليكتوي بنار الدوار مرة أخرى. جفّت الأرض وتشقّقت، وضاع الوادي، وأصبح ماء الآبار مرّاً لا يُطاق، وخنقت القروض من بقي، يأخذونها وهم

فرحون، ولا يعرفون بعد ذلك كيف يردّونها، فيبيعون الأرض ويخرجون هم أيضاً ليلاً كي لا يراهم أحد.

كيف سيعاوده الأمل هنا؟ ذلك الأمل الذي كان يملأ قلبه، ودفعه إلى أن يدوس صورة محجوبة على صفحة الماء، ليعود لها بعد شهور أو سنة فيأخذها وأمّه وينسى الدوار. كيف سينظر في وجهها والخيبة تجلّل هامته؟ والكلام الجميل الذي قاله لها، يوم اعتصرَ يديها في لحظة الوداع لا يزال طرياً، تذكره شجرة الحور، وتذكره مياه الوادي.

قدّم رِجلاً وأخّر رِجلاً، ووصل، حملَ الدرّاجة كي لا تحدث جلبة على الحصى، بعزاء وحيد لم يجد غيره، لقد حاول على الأقل، وبدّد وهماً كبيراً عن الهجرة. تدبّر الوقت ليصل ليلاً، ليراها هي أولاً، ليفرغ نار قلبه أمامها، حتى محجوبة لن تفهمه كما ستفهمه أمه. هي التي أحسّت به أبداً، وحدست همومه قبل أن يبوح بها. كان يكفيها أن تنظر في عينيه لتعرف كل شيء. حضنها، لم يرفع رأسه، قبّلته من شعره، ورفعت وجهه بيديها، لم تكن تعرف في اللحظات السعيدة لعودته أجاء فقط للزيارة، أم عاد بالمرة؟ ولمّا التقت عيناها بعينَيه قدّرت للتو عمق انكساره، فحضنته بقوة ودخلت به. عاودتها في هذه الليلة تلك الغصّة التي عذبتها في عزلتها الطويلة، لقد أخرجته إلى هذه الدنيا وحيداً، كما خرجت هي هناك في البعيد الذي لا يمكنها أن تقدّره استناداً على السير المتعثّر للبغلة المتعبة التي هرّبها

الكيال فوقها، فوق أنهم ساروا في طرق ملتوية، لا أول ولا آخر لها، والكيال مرعوب لا يستقرّ على حال. يتهجّى الطريق، ويلتفت إلى الوراء ليرى حوافر الخيل التي خرجت تلاحقه.

كان الكيال شيخ فرقة «عبيدات الرمى» التي جابت شهرتها الدواوير التي على طوال الوادي وبلغت دكالة والشياظمة، وطواها النسيان بعد ذلك، ولم يعد يذكرها أحد. كانت الفرقة وبعد أن يجمع الناس حبوبهم في المطامير، تجوب الدواوير ببضعة دواب وخيمة، وتملأ لياليها الطويلة بالأنس والطرب، وتكتفي في زهد نادر بمدّ حنطة، بعشاء، وحتى ببضعة طوبات سكر أو بيضة. كانوا فتية ألف حُبّ الطرب بين قلوبهم ولم يخرجوا أبداً ليجمعوا مالاً. كانوا يعودون كما ساروا. يلبسون الثياب نفسها، ويركبون الدواب نفسها، ويتمازحون بلا انقطاع، ويروون نوادر طوافهم بالدواوير، ومع أول قطرات المطر ينسون ما كانوا بالأمس، ويعودون لصفاقة التراب، إلا الكيال، يكتري أرضه، ويغنّي ويمازح بلا انقطاع النساء والأطفال، ويسامر الرجال في الليل، ويضحكهم حتى يتعرقبوا على ظهورهم. لا يغادر الدوار، حتى أرضه يراها من السنة إلى السنة حين يقبض أكياس الشعير، ليصفّها في بيته، فيؤمّن بذلك الأهم، ثم يسكر ويتهتك، وينام على هواه ويغوي نساء كثيرات، فمن في الدوار لم يقل لها الكيال كلاماً جميلاً لم تسمعه في حياتها، لذلك لم يغفر أبداً لأم جابر تلك الليلة، والدموع التي غيّرت بها مصير حياته، لم يغفر لها أنه أوشك أن يُذبح من أجلها، هو الذي لم

يتشاجر أبداً في حياته، ولم يغفر لها أنه حلقَ لحيته وتخلّى عن رجولته، وتنكّر في زي امرأة ليأخذها ويهرب. أحس في تلك الليلة وهو ينفلت من وراء الخيمة ليقضي حاجته، ويجدها قرب جدار متهالك تبكي وحدها، بأنه بحث عنها في صدور كل من عرفهنّ من النساء، وفي كل الدواوير التي زارها. ولم يكن ليجدها، لأنها كانت تعتزل الحلقة وتبكي وحدها في الظلام. لم يعطِ لنفسه حتى مهلة تبيّن تقاسيم وجهها، لذلك لم يغفر لنفسه العشق الكاذب الذي جعله يعود بعد مسيرة عشرة أيام ويخطفها ليلاً من بين أعمامها الذين كانوا يهمّون بتزويجها لولد أعرج من بين أولادهم لم يكن يصلح لشيء ليضمّوا أرضها إلى أرضهم، ويوصلها إلى الدوار ويتزوجها في السرّ، ويمنعها من الخروج. لم يكن يعرفها أحد حتى وقت متأخّر، لم ترفع صوتها، ولم تصعد للسطح، وحتى إذا كانت ستموت من العطش، فإنها تنتظر مجيء الكيال. كانت بلا أثر، باستثناء تلك الجثث الصغيرة التي كان يحملها الكيال إلى المقبرة بعد كل حمل، كخراج وحيد للحرمان والمرارة والعزلة التي كانت تعيشها. ولمّا خرج جابر إلى الدنيا حياً يحرّك يديه ورجليه ويصرخ، لم تصدّق، ولم يكترث به الكيال كأنه ليس ابنه. بلغ الحقد الدفين في صدر المرأة درجة التفكير في ضربة تهشّم بها رأسه. يذكر أهل الدوار أن لم تُذرف ولو دمعة واحدة حين مات، ومع الخطوات الأولى التي خطاها جابر بعيداً عن الدار، خطت هي أيضاً أولى خطواتها نحو العالم، وأصبحا اثنين ملتحمين في وجه قساوة الأب وإعراضه، وكأنها أرضعت الطفل كراهيته له هو أيضاً مع

حليبها، فكبر وهو ينتظر ذلك اليوم الذي يفرغ فيه وأمامه حقده عليه، حتى كان.

قلت سأسكر وأسمعه كلاماً لم أجرؤ على قوله منذ زمن بعيد. ذهبت إلى جانب الوادي مع الغروب وبدأت أشرب وأنا أجهّز كلمات غليظة جارحة، أنت عار القبيلة وأكرّرها ثلاث مرات «تفو» على وجهك، امسح تلك اللحية التي تُباهِي بها أو سأحرقها لك. ماذا فعلت لي ولأمي، الأرض تؤجرها كالمرأة، لتقعد بين النساء تفتل لهم الأحزمة، أين هي الرجولة؟ والله لولا كلام الناس لضربتك، «أومالها گاع» سأضربه وليقع ما يقع، سأغسل عاره بيدي. وسرت في الظلام لا أعلم كيف ووجدته في الدار. قالوا لي في الصباح إني كنت سكران. جئت في الليل وخبطت الباب وأنا أترنح، ففتحه لي فارتميت عليه، قبّلت رأسه ورجليه وهو يدفعني، وأنا ألاحقه لأقبّل رأسه ورجليه، وقالوا لي ما هذا «الرضى» الذي سقط عليك في الليل فخجلت من نفسي وأقسمت ألّا أشرب أبداً. ولم أعد أفكر في الأرض، قتلت غصتها وارتاح قلبي. أشتغل كلما احتجت إلى المال، وأريح جسمي ومخي بعد ذلك إلى أن بدأت في التفكير في الزواج من محجوبة، عاد الهم نفسه وأكثر، مات أبي وها هي الأرض ملكي، فأين هي الرجولة؟ رأيت كيف تقتل الخيبة الذين يعلّقون آمالهم عليها فيشيخون في لمح سنين. نسيتها أياماً وشهوراً، وحين أذكرها يهزّني الحزن والحنين كما لو أني أذكر ميتاً عزيزاً. لقد تغيّر كل شيء، أذكر أنني صككت على أسناني عند شجرة الحور حين كنت أسير نحو المدينة وقلت لنفسي:

لن تنبح كلاب الدوار ورائي بعد الآن
لن أرقب الشمس والضباب وأعيش على تعاقبهما
لن أختنق تحت الغبار كشجرة الزيتون
سرت، وعدت، وبقيت الكلاب والشمس والضباب والغبار.

* * *

كان مبارك إذ يتدحرج على طول الوادي مع المياه المرهقة ينتهي إلى المغارة حيث يستلقي على ظهره ويلوّح لها بيده، ثم يغطّ في نوم عميق وطويل، ويستيقظ ليجد شموعاً انضافت وأخرى احترقت. وحده مبارك يقاطع الدوار ويحتمي بالوادي، وحتى لمّا يطحنه الجوع والوحدة يدفع رجليه إليه على مضض ويعود مهرولاً وكله عزم على ألّا يطأه مرة أخرى. وحده مبارك يحضن النهر ويتمزّق معه ويبكيان. ووحده فتح ثغرة في جدار الصمت الذي نصبه سي معتصم بينه وبين الدوار. وقف على رأسه ذات غروب بقامته الفارعة الطول حتى الانحناء ولحيته المتوحّشة وصدره العاري فانتفض سي معتصم. كانت أصعب مرحلة في علاقة سي معتصم بمبارك المعقّدة هي البداية. كان على سي معتصم أن يتعوّد حالات وأطوار مبارك المتقلّبة ومزاجه العصبي، أن يقبل فوضاه ونزواته وحديثه الطويل والمكرور عن النهر، وتنغيصه الدائم، كأن يخبط باب البيت في عزّ نومه، أو يناديه بأعلى صوته وهو في الفصل، أو يأخذ شيئاً من لوازمه. لن يراه سي معتصم أبداً.

وكان مبارك يراقبه من بعيد ويرى فيه عدواً كأولئك الحمير الذين يدنّسون حرمة النهر ببولهم وقمامتهم. ولمّا اقترب أكثر وأمعن أكثر رأى الجدولَين الصغيرَين كأولى خيوط الصباح ينفران من الخدّين ويمتدان باتجاه أحضان عروس النهر، رأى الجبين تعلوه المرارة، ورأى الأناة تجفل من الصدر كشهب منطفئة، والمآقي كاللهيب. رأى الرأس المنكسة، وتملّكته النشوة والرعب إذ رأى نفسه على مبعدة من نفسه هو، هو، هو، أنا، أنا، هو، وتملّكه الذهول. وقلبه يخبط بعنف جدران ضلوعه يريد أن يخرج ليرى. يقدم، وتغرق رجلاه في وهن الدهشة الأولى، فيفرّ إلى وحشته ويتمه الذي امتلأ الآن بقريب، يشرد، وها هي المساءات تعود إليه من ظلال الزمن المتطاير مزقاً أمام عينيه، المساءات الفاترة، حيث كان يرى الموت أقرب إليه، وجسده كالخرقة التي دعكتها الأرض المحروثة المثقلة بالأغلال، يسير ميّتاً إلى المكان نفسه يجلس تماماً هكذا ويبكي الدموع نفسها، يبكي الأرض التي سلبته الصحّة وغداً ستسلبه الحياة وفي كل موسم تؤخذ الخيرات ولا يبقى له إلّا التراب واليدين الخشنتين والشعر المشعث وبقايا رائحة الغلة في جسده، يمرّ القطن أمام عينيه ككواكب قصية، والقمح كأشعة ذهبية هاربة أبداً، والشمندر كالغصص. يحدق في القمر الهادئ ويسير في الماء يصارعه، يأخذه هنا وهناك ويحلم، يحتمي من البرودة والعزلة وهدير المحرك الذي يدفع له الماء بلا رحمة والأرض المشقوقة بأحلام هلكى يصرعها النور. وعندما أخذت السماء تخلف وعودها ودخلت الأرض ليل شمس طويل، كاد أن ينفطر

قلب الحاج عبدون، ولم يعد يمسك أعصابه حتى مع الله، ويأمر بالحفر لتعميق البئر، ثم يبصق في وجه مبارك ويلعن. يحفرون يوماً بعد يوم ولا يسل المحرّك قطراته إلا بعنف مرير من بين الصخور لتلهفها الشمس بعد بضعة أمتار. ينفجر المحرّك الأول، فيكاد يجنّ الحاج لسيل المصائب، ولمّا انفجر المحرك الثاني بين يدي مبارك وكان وحيداً في الليل البهيم، خنقه الحاج في الصباح وأتى بالدرك، يفتح فمه فيلقّمونه أحذية ولكمات وتُهم. وهو في الزنزانة كان يفتح فمه ولا تخرج الكلمات، يحاول وتستعصي، هجرَته حتى خرج إلى ضفة النهر ونام في المغارة، ومنذ يوم عودته أمعن الدوار في نسج مسافة بينه وبين مبارك مسافة رهبة وشفقة وإحساس بالذنب، فقد خرج الزبد من فم الحاج ومبارك عند الدرك ومات. وعادت ذكرى ذلك الشيخ الطاعن في السنّ الذي نصب خيمة وبرية في ليلة برق ورعود وتكلّم مع الناس في الصباح بلكنة جنوبية وألقى بينهم طفلاً أسمر، تبنّاه الدوار حتى صار نادراً ما يعود إلى حضن الشيخ، كان يتقن تقريباً كل شيء، طبّ الأعشاب، الحدادة، الخياطة، ورواية السيَر وأشياء أخرى، رحمة أنزلها الله بالدوار، لذلك لمّا يدّعي أبوته للصبي ويروي حكاية نبي الله زكريا وكأنها حكايته يصدّقونه، يحزنون لموت أُم الصبي، وغدر الأعمام هناك في الجنوب. مات الشيخ بعد أن تمدّد في الخيمة أياماً يبكي مصير ابنه وسرّه المفتضح ويتابعه بعينَين معذبتَين، وهو يلهو غير عابث بيتمه وآلامه القادمة، وفي نزعه الأخير استحلف من معه أن يرعوه كواحد منهم، فتعالت بلبلة القوم وحشرجة الموت في

صدر الشيخ، ومات دون أن يستمع إلى الوعود الكاذبة ويرى العيون الخبيثة المنافقة التي نهشت مبارك اليتيم الضائع ورمته بالقمامة ونوّمته مع الكلاب والبهائم ورفسته في الصباحات: قُم أيها اللقيط. لا يذكر مبارك من الشيخ إلّا خصلات شعر بيضاء متطايرة في الهواء وبضع أنّات ومكابرة، ينبش التراب دائماً بعود ويحس أن هذه الأرض تنكره ولا تهبه حتى موضعاً لقدمه. أي صدفة ألقت بالشيخ هنا؟ وأي قدر محاه وحرم مبارك من أوهن شيء يربطه بهذه الأرض؟ فقد جرف سيل جبّار عظام الشيخ من المنحدر الذي وضعوه فيه وسوّى قبره بالأرض، كأنه لم يكن!

تعلّق مبارك بسي معتصم كما لو أنه روحه التي بين جنبَيه، ومنحه في كل لحظة فيض حبه ثمناً لانتشاله من وحدته القاسية. وألقى سي معتصم وعن طواعية خيبته وحزنه فوق هذا السند الوحيد، واحتملَ بصبر أطوار مبارك، وما لبث أن تعودها، وفي الحالات النادرة التي كان يغيظه فيها، فيفضّل أن يبقى في البيت يقصده مبارك ولا يفارقه فيوقن أنه قدره تماماً كالدوار والقسم وحفنة التلاميذ. وطوال ثلاث سنوات منحه الكثير، إحساساً جديداً بالحياة، مكاناً أفضل في أعين أهل الدوار، وقدرة على تنظيم أفكاره التي لم تكن إلا هلاماً. واستعذب معه كل مساء انعكاسات الأصيل على صفحة الماء، وشربا معاً نبيذاً حارّاً لا يطفئه جوف النهر رغم أنهما يربطان الحبل جيداً ويلقيان بالقنينة ساعات في القعر، وسارا بأرجل كالزبد. ومبارك يصيح عند الدرك: تكسّر شيء بداخلي كالزجاج، وسي معتصم يرد: سأجمعه لك لا تحزن. تنحّيا بأدب عن المغارة لتضع فيها النساء

شموعهنّ، وقهقها طويلاً للصبايا الرافعات سراويلهنّ في وجل وولّين هاربات، واجتازا في صمت شجرة الحور حيث يحضن جابر معذّبته محجوبة في حمّى حبهما القديم والمستحيل، وانعطفا من جهة شجيرات الصبّار وصعدا إلى المسرب المؤدّي إلى قبّة الجد الأكبر وشهدا النساء يهرولن محتقنات بالكلام عن العذابات اليومية والأزواج الخائبين والأخطار المحدقة ويعدن راضيات مطمئنات. أسلما قيادهما للحظة المتقلّبة في تحلّل تام من جهة سي معتصم من كل مسؤولية، فلم يبدِ طوال ثلاث سنوات أي قدرة على ضبط نفسه والالتزام بالضوابط ففسد ملفّه الإداري باستمرار، وصار عادة أن يفاجئه المدير وهو يفطر أو يطهو طعام الغداء، أو يستلقي ساهماً والغليون في فمه أو يجلس رفقة متشرّد تصدم عن بعد لحيته المتوحشة. وفاجأه كذلك المفتش، وفي المرات القليلة التي كان يقدم فيها على الانضباط. كان منظر القسم المتهالك والأطفال الحفاة العراة بعيونهم التي يأكلها القذى بعجزهم عن توفير اللوازم وبغياباتهم الطويلة المتكرّرة بقلّتهم وعدم اكتراث آبائهم بخيبته الدفينة يدفعونه للإمعان أكثر في سيرته السيئة. فيعدد العطل على هواه، ويبتدع عطلاً شخصية له وأخرى لتلاميذه، ويرقب عن بعد وبلا حراك التلاميذ وهم يخرجون ويدخلون ويبولون في الفصل، ثم يكسرون خشب المقاعد، ويرقب الدجاج وهو يصل مظفراً حتى السبورة وراء حبات ضائعة ولا يبالي. يرشقه المدير بالاستفسارات والإنذارات، ويبعث بالحارس متنكّراً لجمع الحجج والبراهين، ثم يصطنع عيوناً حاذقة من الدوار، ولا

يبالي، حتى أنه في حديث معه طاشت بعض الكلمات البذيئة من هنا وهناك. بصق في وجهه ورجّ قامته القصيرة رجّاً وضربه ضرباً غير مبرح، حوّلته شهادة الطبيب إلى عجز مؤقت لمدة خمسة وعشرين يوماً، ولولا الوجوه التي تدخّلت لألقي بسي معتصم في السجن. اكتفى المجلس التأديبي في اعتدال واضح بانتقال تأديبي إلى نقطة ضائعة بين الجبال. بكى مبارك يومها كما لم يبكِ في حياته، واحتضن في المساء أشياء سي معتصم التي تركها كلها له، حتى الأوراق التي كان يكتبها بشكلٍ مُنتظم ويقرأ مقاطع له لا يفهم منها مبارك إلا أسماء أماكن وأناس يعرفهم تركها له أيضاً ملفوفة في قماش. وعنّت له خاطرة في عذابات الأرق التي خلّفها له رحيل سي معتصم، فقام إلى الدغل وانتقى مكاناً حفر فيه حفرة عميقة ووارى أشياء سي معتصم في التراب وسوّاه بالدموع.

رحل الفتى اليافع الوسيم الذي أربك الدوار بنظراته وغليونه، واعتزل الجميع إلّا مبارك بفم مهدم ينخره السوس وجسد رخو تأكله الباكتيريا وقلب شاخ حتى الموت، رحل متماسكاً ولمّا توارى الدوار خلفه تقدّمته دموعه..

العـرس

«آح... الفقيه تصيد».

«كيخ كيخ... الفقيه تصيد».

في الابتعاد البطيء للموكب المزهو بنفسه رغم تنافره وسوء تنسيقه، والذي كانت تتصدره -وعن جدارة- مباركة المغناج دافعة بنهديها إلى الأمام كفوهتَي مدفع، ومخرجة قليلاً لردفيها الممتلئَين، وهنا الاتّساق الوحيد، كقطعتَين خلفيتَين وقائيتَين والتي حرصت بعد الحدث السعيد أن تأخذ قطعة من الإزار إلى أرنبة أنفها، مفتعلة كما تبيّن للجميع الحشمة والوقار. لتأتي بعد هذه المقدمة الهامة والحاسمة في الموكب، أمها وخالتها اللتين خلّف خبيبهما المساحة الكبرى من الغبار المتطاير، بألوان أثوابهما الزاهية، والصرتين اللتين أحالتا جسديهما من البُعد كفطريتين. وسار الأطفال في الخلف مستسلمين للذباب الذي يأكل عيونهم صامتين، متمعّنين حتماً في هذا الطواف الغريب بين الدواوير المجاورة والذي بدأوه منذ الصباح. لكم أن تبتهجوا يا «عـزارى» الـدوار والـمـوكـب يـمرُّ أمـامـكـم لـلـحـدث الـمـنـذر بالمفاجآت، ولكم أن ترشقوه بالقهقهات والتعاليق النابية، ولكن

بربكم ماذا بوسع الفقيه أن يفعله أحسن من هذا؟ وهو الواقف على أعتاب الفضيحة ولم يبقَ إلا أن يرجمه بالحجر وفي وضح النهار الملائكة الحفاة العراة المعفري الرؤوس بالتراب، المسلّطين عليه من جهة لم يكن يملك الوقت للتثبّت من أنها بالفعل حمادي ولد لصمك، الواقف طوال النهار بجانب السانية يهش كلما انتبه إلى نفسه أو نبّهه أحد على البغل الدائر الذي يستمرّ رغم ذلك سائراً على الإيقاع نفسه وكأنه في استسلامه القديم لقدره البهيمي، وللعصابة التي تجلّل عينَيه، قد ضيّع كل حواسه الأخرى، لتكبر شجيرات الجنينة وليزهر النعناع ويجز ما بحلوله، ولتتعاقب الخضر، يدور، يدور، يدور حتى الموت. غير أن الأشياء التي يعرفها الفقيه عن حمادي رغم قلتها، لها خطورتها وإن كان قد حسم أمره بشكلٍ لا رجعة فيه، حمادي الفضولي الذي تجدُ دائماً غمزة في عينه وهو يختلس النظر لامرأة، بضحكاته العالية، بطلائع الأبّهة التي زرعها فيه المرض الذي بدأ يخيط أباه بالتراب، وهو الوارث الوحيد. لم يكن ليتردّد، فالمباراة اللامتكافئة لا يمكن أن تنتهي إلا بمهزلة، والملائكة المتربّصون مدّخرون لأنواع منكرة من الصفير والصياح، تجبره وهو يريد أن يحادي باب مباركة أن يعتصر شيطانه في جيبه ويلوذ بالفرار.

قال قائد المزاليط، دون أن ينظر إلى الفقيه الذي نكس رأسه وغرق في العرق الذي انسكب مدراراً حتى قبل أن يتفوه بكلمة واحدة، بعد أن مسّد لحيته وأخذ يعبث بها وكأنه مستغرق في تفكير عميق، ثم هزّ الفقيه ووضعه بنظرة بدا مصرّاً على

تحميلها كل رموز العظمة والاستعلاء: «على بركة الله»، قالها بمرح طفولي يعاوده دائماً كلما رأى هيبته الممرّغة بين المسامير والمطرقة والسندان والخيمة الحقيرة، تنهض على رجلَين قويتَين وتجبر على تأدية فروض الطاعة لشخصه، وأضاف بحماس أجّجه فيه رأس الفقيه المنكس: «قبل المغرب إن شاء الله».

ها هو الفقيه يقطر حياء وتخشّعاً، فلمَ لا يساعده وهو رفيق الولائم، ومهمات المصالحة والشهادة على البيع والشراء الذي قرأ معه فاتحة زيجات الدوار، وسيقرأ بابتهاج فصيح هذا المساء فاتحته مرة أخرى بعد المرة الخائبة؟ مضى الفقيه متعثّراً من الامتنان لقايد المزاليط الذي، وفوق موافقته وبعكس ما كان ينتظر، كانت مسحة التفكير العميق التي استولت عليه خالية من تعابير الدهشة والاستغراب وكأنه وفّر كل ما وسعه منها لوجه علال الحجام الذي بلغ به الحد إلى درجة التشنج الشديد والوجوم، ولمّا قال: «ما فيها عيب هذا المساء إن شاء الله»، انفرجت أسارير الفقيه بينما كان الحجّام يدير بداخله أن ما سيقوم به الفقيه ليس عيباً، ولكنه جد العيب بعينيه، وإلا فكيف سيحتمل جسده الواهن جسد العفريتة التي تتدلى عناقيد الشهوة من كل عضو من أعضائها، وفارق السن، وأبوها السفيه والمرض الذي هدّ الفقيه هذه الأيام، أيضيف إليه هذه المصيبة؟ والعزارى الذين لا يتكلمون معها إلا بكلام ما تحت الحزام ولعبهم الأكيد فوقها. ضاع الفقيه ضاع، كان الحجّام سيسبح طوال نهاره بهذه الكلمة التي تبلّل الشفتين اليابستين، لو لم يمر قائد المزاليط وعلى وجهه هيئة الحالات الاستثنائية، ويضرب له

موعداً في المساء. فيتذكّر جلبابه الأبيض المتّسخ، وسرعان ما يفضّ نفسه بشكلٍ سيّئ من رأس أحد الزبائن، ويقصد الوادي بعد أن لمّ لوازم الحلاقة والكرسي وأخذ قطعة الصابون والجلباب، حاثاً الخطى قبل أن تبدأ حرارة الشمس في الخفوت.

ونزلت الشمس مرة أخرى بسياطها النارية إلى الأرض. ولمّا ترنحت عند المغيب وعلى صفحتها كل دماء البشر التي امتصتها منهم في ضياع المزارع القاسية حتى التخمة. فوزّعت فيضها على الأفق وعلى المحظوظ الوحيد الفقيه الذي اصطبغت وجنتاه بحمرة طافحة واستمدّ رباطة جأشه ووثوقية خطواته من بسمة قائد المزاليط المشرعة بلا حدود، بينما كان الحجّام مأخوذاً بوجه والد مباركة الفظ، بأنفه الذي يطل من وجهه مثل سكّة محراث. وبريق الطغي المشعّ من عينَيه الضيقتَين مثل شقّين في جدار متهالك، رجل لا يطيق ولا يطاق، طلق الجماعة من قديم منذ زمن البغل الطائش الذي ألقى به لتنكسر رجله فيصير يجرّها وراءه، وليذبح البغل على مرأى الجميع.

تلكّأت خطوات الحجّام عند ذكرى البغل الغارق في دمائه، أضحية عيد الانتقام الرهيب المرسلة لنظرة ممتلئة بالاستغاثة للأعين الجامدة المحيطة ولمّا تهاوى الرأس فاضت بالمرارة، مرارة السقوط بين الأنياب المشحوذة للكلاب الراقصة، بينما سار الفقيه بهدوء مصطنع بمحاذاة قائد المزاليط الذي استولت عليه الخيلاء، فأخذ السلة المملوءة بالسكّر من يده وشمخ بوجهه. كان وجه والد مباركة مثل قطعة من صخر، ولم يستطع

قائد المزاليط الذي تكفّل بالخطاب الافتتاحي أن يقرأ فيه لا علامات الرضا ولا علامات الرفض، فلم يعد جوابه أن يكون همهمات متقطعة من دون دلالة. استسلم بعدها الفقيه للعرق مرة أخرى بينما أطرق الحجّام كأن الأمر لا يعنيه، ولم يجد قائد المزاليط بدّاً من أن يستفيض في بلاغته لمّا استطال الصمت، وبدا التراشق بالنظرات مع والد مباركة من دون جدوى، تحدّث عن إعراض الفقيه المخجل عن الزواج وغير القابل للتفسير، ونصائحه التي طالما تفضّل بإسدائها، وعن مشيئة الله التي تضع سرّها في أتفه مخلوقاتها، مباركة بنت الحسب والنسب. عندها أحس بيد الحجّام تخزه في جنبه، مثلما هي العادة كلما استشاطت البلاغة بعيداً، فانتبه قائد المزاليط إلى الامتعاض البادي على وجه والد مباركة الذي اختلق عذراً ونهض. قال الحجّام لمّا خلا الجو إن بطنه انتفخ من كثرة شرب الشاي، وقال الفقيه إنه يشعر بالاختناق، ولعن قائد المزاليط الريح الراكدة والشاي ووالد مباركة وأكّد أنه لا فائدة. وكانت أم مباركة تحسم الأمر مع زوجها، فللفقيه أخ في الطليان والكلبة ابنتها، ربما فرجت بين ساقيها وضيّعت قربة الدم الثمينة، وهي تعتمد في تغطية هذه المصيبة على غباء وصبر الفقيه الذي سلّطه الله كالبركة. «يا سبحان الله»، قالها الثلاثة في صدورهم وهم يرون الرجل يعود مهلّلاً، ويهشّ للفقيه يعني سيجد لابنته أحسن منه، والمفاجأة والله العظيم ألجمته عن الكلام، والزمان يخبئ دائماً الحلو والخيرات، وابنته يافعة وسيتّكل على الفقيه في تربيتها على ما يرضي الله. والفاتحة، علينا بقراءة الفاتحة.

بسطت الأكُفّ على عجل، قرأ الفقيه بحرارة ملتهبة وإن خطفه عقله قليلاً فتساءل عبر أي سرداب يأخذه قلبه. وتأمّل والد مباركة في لغز هؤلاء في الطليان الذين بإمكانهم في أي لحظة أن يغطوك بالذهب إن كنت أخاهم أو صهرهم، وانتظر قائد المزاليط «ولا الضالين آمين» ليعلو صوته على الأصوات فيكون قد دقّ علانية مسمار خير آخر في بلغة الدوار العصية على الخيرات، أمّا الحجّام فقد ثبّت عينيه في الوجه المتقلّب الممجوج، وحسم أمره: «القضية فيها إن»، ارتفعت الأصوات: «آمين» فغالب الفقيه دمعة مشاكسة، مرقت حارّة فوق الخد، وارتفعت في باحة الدار زغرودة مدوية كانت أم مباركة تحتبسها بصعوبة وهي تتنصت من على الباب. وتمَّ بذلك الإعلان الرسمي عن الحدث السعيد.

أمس تحرّكت اللجنة المكلّفة بجمع الأربعمئة ريال والتبرعات الإضافية بشكلٍ حاسم وفعّال، ولم يعد الفقيه يجدُ كلاماً يحدّ به حماس العزارى البالغ الإفراط: لا بدَّ من النشاط. وتبخّر إصراره، فإن كان على المائدة فسيتولّى الأولاد أمر الشيخات، وسيساهمون معك حتى في العشاء، ولكن عيب أن تقول عن الفرح بهدلة، عيب يا رجل. الأولاد يكادون يطيرون من الفرح، وتسمّي هذا بهدلة. أمّا عن الخمر فلا تقلق، لقد أقسموا أمامي ألّا يتناولوا إلّا المشروبات الغازية. إنهم يجلّونك يا رجل. أذعن الفقيه اتّقاء للشرّ، والفرح ليس حراماً خصوصاً إذا دخله بيدين بيضاوتين فوق رأسه، أمّا كلام قائد المزاليط فقد

دخل من أذن وخرج من أخرى. فهو دائماً ينزل بثقله لإقامة مثل هذه الليالي، ويزرع النيران وبلاؤه الحسن إلى جانب الشيخات في الرقص معروف. اليوم وبعد التعاقد مع شيخ الفرقة، سارعت اللجنة كمهمة أخيرة إلى طمأنة الذين لم يساهموا بالأربعمئة ريال، فسيحضرون الفرح كالعادة ولكن بعد أن يتعشّى المساهمون، مهمة شكلية ولكنها ضرورية. فالمحرومون يملكون أن يكمنوا في الأماكن المظلمة ويمطرون ساحة الفرح بالحجر وتضيع مسؤولية الإفساد في الظلام الحالك، والقوم يمكن أن تمنعهم من كل شيء إلّا الشيخات، إنه حقّ لا تنازل عنه ويلزمك جيش ينتشر في الدوار إذا فكّرت في تجريدهم منه.

هجرت المزارع اليوم مبكّراً، وقصد الكثيرون الوادي للاستحمام، وفضّل القليلون أن يدلقوا عليهم سطلاً أو سطلَين في الدار، وأخرجت الثياب النظيفة. وها هو الليل، وفرقة الشيخات اتّخذت مكانها في وسط ساحة الدار. جاء المقدّم مزهواً كالطاووس، فوسّعوا له في المجلس. وجاء أبناء الحاج عبدون، الله يرحمه، بسيارتهم، أحمد ومحمد، فوسّعوا لهما في المجلس. وجاء الباقون يخفون تحتهم زجاجات كوكا كولا فدخلوا في بعضهم البعض، ووضعت صينية الشاي أمام المقدّم، ودارت الكؤوس. وجربت إحدى الشيخات طعريجتها بنقرات خفيفة فهاج المنتظرون أمام الباب. وكادوا أن يلغوا الاتفاق، لو لم تصمت الطعريجة ويعجّل بالعشاء، وما أن رفعت مواعين الطعام حتى تدفّقت الجموع المنتظرة فاحتلوا كل الأماكن الفارغة

بما فيها ساحة الرقص وهذا غير مقبول، لذلك جاءت اللجنة بسلَّم فتمَّ تصعيد وبالقوة الزائدين إلى فوق سطحَي البيتَين وإلى الحائط المقابل الذي يسع سمكه المؤخّرات بتمامها، وخرج المقدّم حفاظاً على أبّهة السُّلطة وانطلق النشاط.

اعتبر الفقيه السحابات التي بدأت تحتشد في السماء منحدرة من أصقاع نائية والنجوم التي استمرّت ترسل عبر الفجوات القليلة الباقية إشارات فضية برّاقة، اعتبر هذا التآلف وهو يتطلع إلى السماء من حين إلى حين دلالة مباركة وتواطؤاً، اهتزَّ لها جسده كله لولا هذه المشاق الرجولية التي عليه أن يجتازها بعد حين والملقية بظلالها على قلبه. وتطلّع إلى الجميع ناشراً بسمته بلا ضفاف، فلأول مرة في الدوار يقام فرح من دون خمر، وودّ لو يعانقهم واحداً واحداً لولا هذه الرائحة التي تنبعث من فم قائد المزاليط وقد اقترب منه، والذي تمتم بلسان ثقيل وشفته السفلى تتدلّى في ارتخاء شديد وعينَيه تعلوهما الحمرة. لا، لا يمكن، أيخطئ رائحة العفن الكريهة هذه التي نفرته سنتَين كاملتَين من معلّم المدرسة السابق سي معتصم؟

ودّ هنا لو يغرس أصابعه في عينَي قائد المزاليط الشاخصتَين نحوه تأكلهما النشوة. لو ينهال بالضرب على الباقين الذين كما اتضح له الآن، يجهدون أنفسهم في الاستواء على الأرض بعد أن طوّح معظمهم بأعناق عدة قنينات، لو يكسرها فوق رؤوسهم ليريهم أنه فطن لزجاجات كوكا كولا المملوءة خمراً، كأن

اللونين سيختلطان عليه، الحمير، وحدث أن هاجت بطن الرخ فقذفت في اندفاعة واحدة حمم الطعام المهضومة بشكل سيّئ مخلوطة بالسائل الأحمر القاني، وأدرك الرذاذ البعيدين في الصف، أما القريبين، وأمام هذا الحمّام البغيض وغير المنتظر، فقد تناوبوا عليه بالقبضات والركل وتركوه في سكرات الموت بجانب البئر. تقزّز الفقيه لمرأى القيء فخرج وهو يحسّ بالشيطان يرقص طرباً بين كتفيه. القوم يسكرون حتى الحمير لعودة حاج من الديار المقدّسة فما بالك..

كانت لحظة توقف بسيطة وطفيفة عاود النشاط بعدها مساره ساخناً هذه المرة، حيث انبرت إحدى الشيخات للغناء: «واش هذا يصبر» مشيرة إلى منطقتها المثيرة للحرج، فتردّ عليها باقي الشيخات: «بالصبر» لتلقي المخزونات بأثقالها. طارت عمامة قائد المزاليط في السماء. كان الفقيه قد بدأ رحلة اللهاث بعد تمنُّع مبالغ فيه من طرف مباركة وكأنه يغرق في الطمي. حجزت مقدّمات ومؤخّرات الشيخات في لمح البصر، وتطايرت الأيدي وأحس الشيخ والطعرجي اللذين أبعدا بقوة المرافق عن الشيخات بالضيم والتفاهة فتوقّفا عن العزف، فعوّضهم الصفير والتصفيق والخبط على الصدور الذي كان يباشره الذين لا يقدرون على المزاحمة، وأخذ الفقيه ينهي خبطه المحموم بالحشرجة، ليدرك بعد أن قذف للمرة الثانية أنه يطلب المستحيل كمن يحفر بئراً بالأظافر في الصحراء. وامتدت الأيدي في لحظة نخوة نادرة، ما كان لعاصفة النشاط أن تمرّ من دونها، للورقات النقدية الحمراء

القابعة في الجيوب السحيقة في انتظار مثل هذه المصادفات لتودعها وبتردد شديد تحسمه بقوة بشرة ما بين نهود الشيخة الطرية الناعمة، هو ذا الاغتراف العابر والثمين من بحر اللذة الهائج أبداً، هو ذا الضمان المسبق للخيالات العصية في ليالي العزلة الباردة، بما فيه من تضحية جسيمة وما فيه من إفراط، ولكن الخطوات القليلة التي خطاها الفقيه مبتعداً عن دائرة النار، حيث أدمت صدره نظرات مباركة الوقحة، مجرجراً ذيول رعشته المخذولة ببقايا اللهاث والعرق، كانت كافية لتقدير عمق انكساره أمام عاصفة الجمع التي تشكِّل الآن ثوراً هائجاً يطلب -كما تناهى إليه- دم العروس كتتويج وحيد جدير برغبته المكممة أو المراقة هدراً في السراويل البريئة.

من أوراق مصطفى

الاثنين 16 سبتمبر. . .

في زاوية الغرفة، كنت ألمم أطرافي والريح القوية تطارد أصوات العرس الصاخب ونباح الكلاب، ينأى الصوت حتى يخيل لي أنه ينبعث من طرف العالم، ويقترب كأنهم يتجمّعون بباب البيت. لقد صدمني في الصباح الخلاء الكبير والصمت الذي يلف البيوت المتناثرة، وبدا الدوار مقفراً متآكلاً اجتاحه الزمن ولم يخلف إلا بضعة دواب وآدميين ضائعين في الظلال، وبعد العصر تفجّرت الحياة ينابيع من المسارب القصية، من بين الشقوق، ومن بين خيوط العنكبوت، من خمَمَة الدجاج، وزرائب البهائم، وانتشر الصخب. كان معي ما يكفيني من الطعام لبضعة أيام، ولكني وجدت بئر المدرسة محجوباً بطبقة من الحشائش والأعواد ووجدت دلواً متّسخاً يابساً صدئت مساميره، يظهر أنه لم يرَ الماء منذ زمن بعيد، ملقى في ركن البيت، وأحسست بعطش شديد فقصدت الدوار لأشرب وأشتري حبلاً للدلو. لم أكترث للنظرات الفاحصة المتسائلة التي توقعتها، ولمّا وصلت

إلى الدكان وجدته مملوءاً بأناس يلعبون الورق و«الضامة»، وآخرين يحتسون الشاي ويدخّنون، ففهمت أن عليّ الدوران إلى الشبّاك لأكلِّم البقّال. ابتسم لي ورحّب بقدومي وأخبرني أنه لا يبيع الحبال ولكنه سيتدبر لي في الحين واحداً من كيس السكّر. رفض أن يتقاضى ثمنه، وأعطاني ماء شربته رغم ثقله وسخونته وطعمه المنفر، ثم أخبرني لمّا لم أستطع أن أضبط نفسي أمامه وبصقت، بأن مياه الآبار هنا مرة الطعم. لم أفهم، وأضاف أن أهل الدوار يضطرون للشرب من مياه النهر العفنة، ولا حاجة في الواقع إلى البئر إلّا إذا أردت الغسيل.

منذ الفجر في سيارة الأجرة أو فوق الشاحنة وطوال الطريق مع الحارس كنت أحاول أن أفلسف البداية التي كنت أقدم عليها برعب دفين، وتذكرت قصيدة أو كلاماً قاله بلا مناسبة شاعر مغمور من مدينتي:

«قلبي يذوب حزناً
وأمضي مبتسماً».

بدا لي الطريق الذي يقود إلى بسمة مكابرة شاقاً وطويلاً، ولكن المحاولة تبقى دائماً ممكنة. وفي الليل سندت الباب الذي وجدته ملقى بلا مصاريع بطاولة أخذتها من القسم، وحاولت النوم وأنا أصيخ السمع لما يجري في الدوار في يقين تام بأني لن أنام في ليلتي الأولى هنا، ومن حسن حظي أن الدوار كله يسهر معي، ولمّا بدأت قطرات المطر متفرّقة ظننت أنني أحلم، فقد كانت السماء صافية تماماً عند الغروب، وما لبثت أن اندفعت

الريح قوية وعنيفة فخفت أن يكون السقف مشقوقاً، أو أن يتسرّب الماء من الباب لذلك تجمعت قِلِقاً مترقّباً، وما أن اقترب وقع خطوات حثيثة من الباب، حتى كنت مقرفصاً، وعندما دفع الباب وأحدثت زحزحة الطاولة وانهياره صوتاً مكتوماً انتصبتُ، فتدحرج أمامي رجل تحسّس في الظلام الطاولة، استند عليها ووقف. كنا نحدّق في بعض، ولم أتبيّن فيه غير عينَين صغيرتَين غارقتَين في الظلام وفظاعة الموقف، وصاحت به امرأة من خلف: «جابر.. مالك»، وبعد صمت ردّ في توتر واضح: «والو.. والو» ثم استدار نحوي وقال بصوت مخنوق وخافت: «سامحنا، معرفناش أنك هنا» وانسحب، وقفت طويلاً بلا حراك، كان قلبي يدق بسرعة وأحسست بوقع المفاجأة يسري في كل جسمي، ثم عدت واستلقيت في إرهاق شديد.

وفي الصباح الباكر خرجت، كانت الأرض يابسة بلا أثر لمطر الليل وكأنها حلمت به فقط، سرت قليلاً وانحدرت جهة الوادي، وهناك رأيت بركاً صغيرة متناثرة في الفضاء وسط الأرض الجافة كالمعجزات. ولمّا انتبهت إلى كوني قد ابتعدت كثيراً، والبيت بلا باب، عدت فوجدته هناك، لم أخطئ العينَين الصغيرتَين لرجل الهزيع الأخير من الليل، بادر بالتحية وقدّم لي صينية شاي بها صحن زبد بلدي وخبز أسود واعتذر مرة أخرى، فقد جاء أمس فقط من المدينة ولم يعلم أني هنا، ولمّا داهمهما المطر قوياً وكانا قريبَين من البيت، جريا للاحتماء به. كان قصيراً ممتلئاً، خجولاً لا يستطيع أن يثبت فيك عينيه، معذّباً، يكلّمك بهمس وكأنه يكلّم نفسه، أنيقاً بمقياس من رأيتهم من أهل الدوار

يلبس بذلة شغل زرقاء ويلهو بشارب خفيف مرح يبدو حبيس التقاسيم المعذّبة لوجهه وهو يستمع إليك، صبّ لي وله كأسَين، وقدّم لي قطعة من الخبز، ثم التفت إلى الباب الملقى وأشار:

- تلزمك مصاريع وقفل الباب.

- نعم.. ولكن ما تنظنش يمكن نوجدهم في حانوت الدوار.

- لا.. راني ماشي اليوم للدوار المجاور، إذا حبيتي نشريهم ليك من تماك.

شكرته، لم يرفع رأسه، ولم يقرب كأس الشاي، يضيء وجهه لطف حقيقي. بدا لي أنه يجهد نفسه ليصطنع لحديثنا موضوعاً، بادرته وأنا أركّز نظرتي في بدلته الزرقاء:

- تتخدم في المدينة؟

ردّ بسرعة واقتضاب وشيء من الحزن، كأنه يريد أن يفضّ نفسه من ذكر مآسيه.

- لا.. ولكني حاولت ما وجدت والو ورجعت.

وأنقذ طفل جاء يجري موقفَ الصمت المحرج الذي كان يتهدّدنا وسار معه الرجل فتتبّعت مشيته الثقيلة المتّزنة، وقد شعرت بارتياح داخلي، فبعد أرق الليل وحالة البيت، ومداهمته العنيفة واللامتوقعة، كانت أعصابي في الحضيض وأصبحت عيناي المرهقتَين مفتقدتَين للوضوح والصفاء.

عاد بخطوات بطيئة متردّدة، بوجه قلِق كأنه على حافة، حسم أمر ما وبسمة عابرة لا تكاد تستقر في وجهه حتى تغيب، جلس في المكان نفسه ورشف هذه المرة من الكأس. هتفتُ به:

- ياك لاباس.

- لاباس.. واحد الرجل تابعني شحال من عام باش نكري ليه الأرض هذا الصباح حاول مرة أخرى.

أحسست بأنه لا يمانع في أن نخوض في هذا الحديث فقلت:

- عندك أرض لا تحرثها؟

- شحال من عام.. شي أربع سنين مات الوالد وتركها لي بلا ماء، تعرف الأرض بلا ماء ما تساوي والو. غير حفنات من التراب الناشف.

رفع رأسه إليّ، وبصوت بالغ الحزن وبعينَين شبه مغمضتَين تابع:

- والله.. تتمر علي أحياناً شهور، وأنا ناسي بللي عندي أرض.. الأرض إلى متتعطيكش بحال إلى معندكش.

قلت وقد خالطت وجهي بسمة وأنا أرفع الكأس إلى شفتي:

- كريها وتنفع بفلوسها.

وضع الكأس من يده، وردّ بسرعة وحزم وكأنه هيّأ هذا الردّ منذ سنين:

- كان الوالد تيكري الأرض لأنه رجل كبير في السن مقدرش يخدمها، كان معذور أما أنا آش من عذر عندي.. لتيكري الأرض، هو قادر يخدمها مش رجل.

بدا لي موقفه مهتزّاً وكأنه مزيج من النقائض، فقلت:

- متتخدمش الأرض. مبغتيش تكريها، أنت الخاسر.

- يمكن لكني راضي، كل عام تنقول نتسلف أو نحرثها

والسلام، أوملي تنشوف الآخرين تيتعذبوا والنبات تيموت قدامهم تنتراجع، تنقول لراسي لازمك البئر والموتور إلى مكنوش معندك حرث أجابر.

أردف بعد فترة من الصمت:

- آش تظن أنت الكراء، تيهلك ليك أرضك وفي آخر العام يعطيك كيسين أو ثلاثة أولا زوج دريال.. مكاينة معنى.. الحاج بوعزة عارف بللي أرضي مزيانة شحال هذا متحرتاتش، أو هي قريبة من أرضو يوصلها الماء.

صبّ لي كأساً آخر وقام واقفاً.

- نخليك الآن.

أشرت إلى الصينية. فقال إنه سيعود ليأخذها. أعطيته ثمن المصاريع والقفل، وفي المساء ساعدني في تصليح الباب وقضيت معه ساعات طويلة نحتسي الشاي ونتحدث في مواضيع لا حصر لها. كان خلالها يسند جبهته بكفّه ويسهو، ولمّا أراد الخروج التفت وقال بصوت متردّد: «ربما هاد العام نحرث الأرض». ابتسمت ابتسامة مشجّعة وشددت على يده بقوة.

لا أريد أن أستبق الأحداث، ولكني أحسست بأن صداقة حقيقية ستجمعني بجابر.

كان الدوار يعيش على حرف. وليست مظاهر الفرح العارم التي أبداها الناس في عرس الفقيه أول الليل إلّا نوعاً من التنفيس عن الأحزان والخوف الغائرين بعيداً في القلوب، فقد توالت أيام الصفاء، وتربّعت الشمس على عرش السماء في استبدادية

مطلقة، وبدت تلتهم أيام موسم الحرث. لم يحمرّ الأفق أبداً في الصباح كما تخبر النبوءة الغارقة في قدم العلاقة المحكمة بين ثالوث الأرض والفلّاح:

إذا احمرّ الأفق في العشي سرج فرسك للمشي
وإذ احمرّ في الصباح سرج فرسك وارتح

كان كل واحد يستعدّ على هواه في تستر يجهّز السكة والمحراث وينقّي الحبوب أو يجمع النقود لكراء الجرار. ويبتهل إلى الله في حرقة بشكلٍ دائم أن يرحم عباده، وينتظر، وفي آخر الليل في قمّة العرس ومع القطرات المفاجئة لم يعد أحد يعبأ بما صنع الفقيه بدم عروسه فتحوّل العرس في لمح بصر إلى سوق صاخب، واحد ينقصه كيس حبوب وآخر بهيمة للمحراث وآخر شيئاً من النقود.. وتفرّقوا واثقين متفائلين يتلقّون في امتنان ضربات البرد القوية وقطرات المطر الثقيلة. في الصباح تحرّكت سكك الحرث بصعوبة في أرض مخادعة، تخرج بعض قشرة صغيرة مبلّلة التراب الخشن الجاف نفسه، كان الفلاحون يدركون أن زخّات الرعد لا تنفذ في الأرض، وبالتالي فإنها لم تصلح بعد للحرث. ولكنهم في مكابرة وإصرار غريبَين ألقوا بالحبوب في أعين السماء وكأنهم يورّطونها معهم، أو أنهم ببساطة يؤدّون واجباً عريقاً نحو الأرض وينتظرون من السماء أن تنجز واجبها.

تلك المرأة الجميلة جداً الحزينة جداً

-1-

لم يعد يذكر جابر متى بدأ يحبُّ محجوبة ذلك الحبّ الصامت العصي الحزين، متى أخذت تستولي عليه تلك الرغبة الجنونية في رؤيتها وهو بعيد، متى أخذ يتسلّل في خجل إلى الأماكن التي تسير إليها، ويحصي الساعات، بل وقع الساعات، التي تغيب فيها على قلبه كأنه يحصي لدغ عقارب، ومتى أقفرت لياليه واستولى عليه الأرق وهي تخلو من رائحة وصورة محجوبة، متى تأمّلها صامتاً، اعترف لها بحبّه، تضرّع لها، قرّر أن يهجرها، وودّ لو يخنقها، متى احتضنها كما لو أنه يحتضن الحياة وقال لها بحرقة: لا أستطيع أن أعيش من دونك.

كل شيء يبدأ صغيراً ويكبر، إلا حبّ جابر لمحجوبة بدأ كبيراً في تلك اللحظة التي لا يستطيع تحديدها، بدأ لا متناهياً مضطرماً، وكأنه قدر دمغ به قلبه منذ الولادة إلى الموت. وعندما ضغط على قلبه واعتصره بإصرار بين يديه وسار إلى المدينة، كانت عيناه تريانها حيث لا توجد، كانت تهبط مع الليل وتعترضه

في الصباح، وتنغّص عليه اللقمة الدامية التي سار من أجلها. كان باستطاعته الصبر على عيشة الكلاب حتى تفرج، وتضليل الشرطة وتجنّبهم بالقدر الذي شاء. كان بمستطاعه أن يتحدّى الجوع والعطش والنوم بلا غطاء في الليالي الباردة والذل والضآلة وحتى الموت، ولكنه في ذلك الفجر أحسَّ بأنفاس محجوبة الدافئة تجرفه إلى هناك، وعذّبه اليقين المُرّ مرة أخرى، طوال الطريق، لن يستطيع العيش من دونها.

يذكر جابر الطريق الطويل وسيره المتعثّر، كان صغيراً جداً، وأول خطواته خطاها إلى هناك بين الحصى والأشواك، وعندما ينتهي إلى البيت يدفع الباب بجسده الصغير أو يصرخ، فتفتح له امرأة فارعة الطول، تأخذه بين يدَين رقيقتَين، تبتسم له وتقبّله بوجه شاحب معذّب، لكنه جميل بشكلٍ لا يتصور، حتى أن جابراً لم يغيّر انطباعه وبعد عدة سنوات، إنها أجمل امرأة رآها في حياته. كان يلعب في صحن الدار أو تصعده إلى السطح وترعاه وهو يعبث بالحمّام وتدس في يديه من حين إلى حين حلوى اشترتها خصيصاً له من السوق وتنوّمه فوق ظهرها، وحين يصحو تدع كل شيء وتتفرغ له.

كان بيت الحمام البعيد، بيت رائحة الحبق التي ما شمها جابر إلا وتذكر المرأة الجميلة جداً الحزينة جداً، بيت محجوبة التي كانت آنذاك قد خرجت لتوها إلى العالم ضئيلة تتناوب عليها الأمراض، ويتهددها الموت في ركن اللامبالاة الذي رميت فيه، مكابدة في عامها الأول إعراض الأمومة الشاذ. كانت محجوبة الصغيرة لا تنقطع عن البكاء، بكاء تضيق به المرأة الجميلة، فهو

يلاحقها أبداً وكأنه عذاب نيّتها السرية طوال شهور الحمل في إخراج الطفلة ميتة إلى العالم. فقد شربت المُرّ وأكلت الخبيث الذي لا يؤكل وقفزت من أعلى درجات السلَّم، أحكمت شدّ الحزام على بطنها وحملت الثقيل ومشت كثيراً، ولمّا صرخت الصغيرة في وجه النيّة الإجرامية للأُم وحرّكت أعضاءها الصغيرة في الفراغ الرحب للدنيا، أقسمت المرأة الجميلة لن يمسها زوجها أبداً. يذكر جابر، كانت أمه غير قادرة على حبّه بالقدر الذي أحبّته به تلك المرأة، ويذكر بكاءها الطويل وسهرها الليالي فوق رأسه وطوافها به الدواوير والأماكن القصية تجمع له أعشاب الشفاء ومباركة الأولياء، وكانت المرأة المكابرة المترفّعة التي عاركت الزمن وما نال منها، تقبل في ذلّ وضَعَة إهانات وغيظ الأم في غيرتها الملتهبة إذ تنتزعه من صدرها بعنف وتأتي إلى هناك، إلى دار الحمام، وتضربه أمامها لكي لا يتسلّل مرة أخرى إليها وتحبسه أياماً، ولكنه يعرف طريقه بعد ذلك ويصيح بالمرأة الجميلة عن بعد: «أمي»، فتبكي بعينَين ذابلتَين بلا بريق.

منذ ذلك الزمن البعيد لم يتغيّر انطباع جابر، بأن بيت الحمام بيت سعادة وحنان، وبيتهم بيت سطوة وقساوة. وحتى لمّا علم بعد عدة سنوات بأن ذلك البيت أيضاً كان بيت معاناة ومكابدة وحرمان شديد لم يغيّر انطباعه. انحدرت المرأة الجميلة من أُسرة عريقة في نسب الدوار، أباد الاستعمار كل ذكورها وتكفّل أعوانه المحليون بتجريد إناثها من إرثهم الكبير، لم يتركوا لهم إلا غيظاً دفيناً وهول كارثة أحالت البيت المفتوح، أبداً، كتلة صماء معزولة ومغلقة، لا يدري أحد ماذا يقع فيها. سارت

أخواتها وراء أزواجهنّ إلى أماكن نائية وانقطعت أخبارهنّ وبقيت وحيدة تحلمُ بالخلاص وعودة العزّ على يد حشد من الذكور ستنشرهم من بطنها الخصب في الدوار، واختارت من بين الخطّاب العديدين شابّاً يافعاً انحدر من أُسرة مفلسة من المال الذي لم يستقرّ في يد طوال تاريخ الدوار الطويل، ولكنها غنية بالنسب والذكريات. عاشت معه حياة زوجية غير متوقّعة وصلت ذروة التعاسة والإحباط، إذ أخذت ترى حلمها يضيع هدراً وهي تخرج إلى عهد الاستقلال ببنت. كانت تنتظر في الحمل الثاني ولداً أحسّت بضرباته الذكورية القوية التي لا يمكن أن تخطئها، وأحصت بلا ملل حركاته في ظلام أحشائها السحيق، وابتهجت للثقل الذي لن يكون إلّا ثقل فحل. جهّزت كل شيء لاستقباله، الثياب والخرق وحتى التعاويذ الحافظة من عين السوء، وفي اللحظة القاتلة صرخت كالمجنونة بنبرة حادّة رغم الآلام، رغم الوهن ودم النِّفاس الذي ملأ المكان. ماذا فعلت يا رب؟ ولماذا قدري قاسٍ هكذا؟

ودخلت الحمل الثالث أكثر شكّاً وأكثر إصراراً على تغيير مصير بطنها بحرب لا هوادة فيها، فأكلت أعشاباً بعينها وجعلت زوجها يأكلها ونذرت للأولياء والفقهاء والشجر والحجر، نذرت لكل من تلقاه ولمن لن تلقاه، وقامت الليل وسارت بلا كلل لصلاة الجمعة عبر المسارب الوعرة هناك على تخوم الخلاء. وجرّبت أوضاعاً للمضاجعة وصفها في خبث فقهاء ماكرون في مشاهد استيهامية، وحفّظت زوجها أدعية مرافقة، وغيّرت باستمرار أمكنة النوم، وعلّقت هنا وهناك جداول وأحرازاً رائعة

الإتقان، واستحلفت الحمام الأبكم أن يتوسط لها وقالت في نفسها، على مشارف نومها المنغّص، لا يمكن للقدر أن يخونها مرة أخرى.

كانت الحياة قد توقّفت في البيت، وعلقت كالقربة الجافة على بطن المرأة الجميلة ولم يعد الزوج الطيع اللطيف قادراً على العمل في البُعد، حتى الحمام أخذ يصطف طوال النهار على حافة صحن الدار وينتظر، وانهارت تماماً انتظامية الزمن وأصبحت الأيام تسقط بلا طعم باتجاه نقطة نزول الجنين. عاود المرأة الجميلة هوس العلامات المنبئة، التي أخذ الزوج يتلهّى بإحصائها وهو مستلقٍ في الشمس، وصغيرتاه منهمكتان في إعداد لعب أخيهما المرتقب.

وذات صباح قاسٍ أغبر وفي غير موقته المعلوم وبعد وجع ضار أطلّ الجنين، كان ذكراً ولكنه نزل إلى العالم هامداً متفحّماً دعكت أعضاؤه في بعضها البعض، طافت حوله المرأة الحزينة على أربع بعينَين مذعورتَين متحجّرتَين كعينَي كلبة أكلت جروها، وانتحبت طويلاً بمآقٍ جافة بلا دموع. تمرّغت في تراب المسرب حتى المقبرة، وحفرت وجهها أخاديد وقد روّعتها الحقيقة المنبلجة من الجمع الضئيل الذي ألقى في تبرُّم بالجنين في شقّ من شقوق الأرض العطشى وأسرعوا بخطى أملاها الواجب المحرج أبداً أكثر من حسّ مواساة المرأة الثكلى: لم يقدر بطنها إلا على إضافة ميت آخر إلى موتاها المتراصّين في صمت المقبرة الخالد. كانت الحياة المخاتلة العدوة، التي جرّدت المرأة الجميلة جداً الحزينة جداً بوحشية رهيبة من كل أحلامها تعطي

في اليوم نفسه ولداً في بيت الكيال. رأته المرأة في عتمة نهارها الكظيم كعودة مستحيلة لابنها الملقى هناك، فمدّت يدَين متوسّلتين ووجهاً على حافة الموت إلى الكيال أن يسميه «جابر» على اسم أخيها الكبير، تردّد الرجل كثيراً ولكنه لم يستطع مقاومة شفقته على المرأة المعذّبة الرانية في ضراعة لشفتيه.

كان أغلب الناس في الدوار يتلذّذون بمكابدات المرأة التي حكم عليها الزمن بديمومة العذاب، ويكبرون فيها خروجها بعد كل مصيبة بالتألُّق نفسه، بالصفاء نفسه، بالنظرة الشامخة والانتصاب المترفّع فلا شيء يعلق بجسدها بمثل القوة التي علقت به رغبتها في تجديد الحياة وانتزاع أمنياتها منها، فريدة، متوحّدة، يانعة كالزيتونة الضاربة بجذورها في ضريح الجد.

وفي اليوم الذي أخرجت زوجها إلى عربة النقل، مسنوداً بين يديها، عاجزاً ذابلاً، وقد عاث السلّ في صدره، وأخذته للمدينة حتى قساة القلوب قالوا في سرّهم: لا يمكن للقدر أن يكون قاسياً هكذا.

طوال ثمانية أشهر سارت في طريق شاق ومكلف إلى هناك، انتزعت اللقمة من أفواه بناتها ومنحتها لمن يتعهّدون صدره في المستشفى، سارت يتهددها الرجال بين رعب المدينة وعذاب الحاجة ووصلت أبداً في موعدها معه بعلب الدخان وأكله المفضل وثياب نظيفة، ودسّت بوجل في أيدي ممرضين واجب رعاية مميزة في مرتع للقذارة والإهمال. عاد بعدها كما سار بالألم نفسه، بالصدر الرخو المهتز والوجه المتغضن نفسهما، بحبوب كبيرة كقطع الكلس، عاد أكثر قدرة على تحمّل عذاب

المرض وعذاب الحاجة الدائمة إلى الآخرين. رجع بوصية لم تكن الصحّة الفظة التي تحبو على أربع تملك غيرها: كُل جيداً واحرص على تنويع الوجبات. ولكن من أين؟ فبعد شهور خلا البيت تماماً من كل شيء يسوى ثمناً وصار مقفراً، وانتقلت حمّى التقشُّف حتى الضروريات الأكثر إلحاحاً في الحياة، كان العالم آنذاك يتقلّص في أعين الصغيرات يوماً بعد يوم وكأنه واقع تحت زوبعة من الطلاسم، ولمّا لم يبقَ غير حصيرَين واحد للزوج المعزول وآخر للصغيرات، وبضعة ألحِفة، وقدر وغلاية وكؤوس، انتقلت المرأة الحزينة إلى أرض زوجها تفتتها قطعاً قطعاً وتتفتت معها. كانت تقول في نفسها: «كل شيء إلا الأرض، ها هو وقع الأرض من تحتك قوية صلبة»، وتعاود الضرب، «إذا بعتها لن يبقى لك تحت رجليك إلا الفراغ»، وباعتها قطعة قطعة، وفي كل مرة كانت تعتقد أنها الأخيرة، سيخف زوجها ويعود إلى الأرض وتزهر الحياة من جديد، ولكن زوجها كان يشيخ وينسحب باستمرار من الحياة، ولم يبقَ منه في الركن إلا نوبات من السعال المخنوق.

عودة الفقيه إلى عذابه

كانت فضيحة كبرى، نجحت البدويات الحاذقات من أهل الفقيه في تداركها لتلازم حدود الإطار العائلي المحض، لقد حدسن كل شيء من عينَي الفقيه المحمرّتَين والمغمورتَين بالدموع. من العرق المتصفّد على الجبين، والمشية المجهدة وعدم القدرة على الكلام، فعمدن تحت ستار القطرات الثقيلة للمطر إلى اقتلاع آخر الفضوليات من البيت وإبعادهنّ.

حين خرج كان الظلام خانقاً ورهيباً، توقّف قليلاً يستجمع أنفاسه، كان يريد أن يهرب، أن يبتلعه الظلام، ويقول لنفسه: لو فتحت أمامي الأرض لدخلت فيها. ولمّا يمرُّ ومض البرق أمام عينَيه المذهولتَين، يرى خيوط الماء الكثيفة غابة من الخناجر والأسلاك البرّاقة تقف بينه وبين الانطلاق. استندَ على رتاج الباب وتحسّس جسده، كان موطن الألم يتجمّع في قلبه.

لم يقل لها كلمة، ولا كلمة واحدة، لو حاول لاستعصى عليه الكلام. كانت لا تزال مستلقية ومفرجة ساقيها، بعيدة في قربها وكأنها على حافة العالم الآخر. تلفها في انعكاسات ضوء

الشمعة الواهِن عتمة الخطيئة، وكان يحدّق فيها، لم يصدّق عينَيه. كانت هناك وأصابعه تبحث في انفعال عن تِكّة السروال. مطمئنة، هادئة، عيناها تلمعان في العتمة، وتسدّدان له نظرات واثقة ومدمّرة فيحسّ بالخراب يسري أسفل بطنه، وبهوّة سحيقة تنفتح وتجعل رجليه معلقتَين في الفراغ. لو كانت هناك قطرة دم واحدة تكفيه ليعاود الحياة. لماذا تستعصي عليه وتغيض حين يتعلّق الأمر بحياته وشرفه؟ ولو حمل خنجراً ومزّق أحشاءها لتفجّرت الدماء ينابيع، لماذا فعل الموت أيسر وأرخص من فعل الحياة؟ كان يجرجر رجليه في الظلام السميك، يخنقه ترقّب الصباح وينبض جسده بالغيظ والألم.

لو بكيت، لو تمرّغت بين رجليه وقالت له: «ارحمني». كل بني آدم خطاء، لو ملأت ذلك الصمت الرهيب، الذي وهبه إحساساً بأنه لم يتراجع أمامها بل طفا في اهتزازات متلاحقة، وتلاشى في السقف المتعَب للبيت، لو توسّلت له بلا كلام، بالعينَين المنكسرتَين فقط، ولم ترسلها إليه، واضحتَين متحدّيتَين، في ابتهاج حقيقتها القاتلة، كان سيبصق، يشتم، يضرب، ويرميها بيمين الطلاق، ولكنها اقتفته بنظراتها، أفرغته من الكلام والفعل، أجل، كان يتراجع كخفقة غضّة يستنفذها الظلام، ولم تستعد الثوب لتستر عريها. كانت واضحة بلا أسرار، لست لك، فلمَ اغتصبتني؟ لست لك فلمَ الفضيحة؟

دفع بلغتيه الثقيلتين في الماء الموحل، كانت قطرات المطر تنزلق على وجهه وعنقه وتتسلل إلى صدره بين فتحة الجلباب، وبعد سيره المتعثّر، أحس بالبرودة تسري في مفاصله، وبثيابه

تثقل جسمه، كان لا يعلم أين يضع خطاه وإلى أين يسير ولم يستطع التحكم في الدموع التي أخذت تذرفها عيناه.

ما من شيء بعد اليوم سيرحمه من عيونهم، ويتقدّم إلى الأمام. كانوا كالكلاب بتوهج العيون المرتقبة للضحية، وكان بينهم، حتى إذا كانوا كلهم يجهلون، فهو بينهم شامت، مبتهج ينظر إليه بتحدٍّ، ويلهو بعورته المكشوفة وراء الباب. كان وقعه ورائحته ودربته عالقين بجسدها وبعد تمنّع مبالغ فيه أعطته بلا اكتراث جسداً مجرّباً. كان يضطرم وكانت هناك باردة، محايدة، وكأن الأمر لا يعنيها. يعذّبه الصباح الآتي، والكلمات الثقيلة، والخبث المعلّق في العيون. وحين يغمره الماء، يتراخى ويسلّمه قياده كأنه مغمور بحلم رائع. كان يغتسل، ولم يمسك البلغتين اللتين جرفهما التيار المندفع، ما عرف المرأة، ولم يقدّر أبداً أن قلبه يمكن أن يشتعل بتلك القوة، والمرأة شرّ، وشرّ ما فيها، لا بدَّ منها. حقيقة يخالطها الوهم، عابرة كالحياة، متقلّبة كالشهوة، مقرفة كالإثم. أحسَّ بثقل رهيب يشلُّ أعضاءه كان يندفع باستمرار إلى الأمام وسط المياه الصاخبة ممدداً كنعش يريد أن يتشبّث بالأحجار الناتئة فتفلت من يديه وتدميه. لم تعاكسه الحياة هكذا؟ وقد سارَ فيها على الحافة كعابر سبيل كلامه همس، ومشيته تلصُّص. سارَ فيها بحركات محسوبة وسكنات محسوبة، ومتع صغيرة وبريئة ضائعة وسط تاريخ من الحرمان والخوف. لم تخدعه فتلبس المتعة بالخيبة والخيبة بالمعصية؟ قطرات المطر الثقيلة تتراكض على وجهه وصفحة الماء. كان النهر يختبر قواه في لحظة مكابرة وسط زمن طويل من الوهن والحرمان. مدَّ عينَيه

في سديم الماء والظلام، كان يضيع باستمرار، ولا يستطيع الحركة، حاول أن يصرخ وفاجأته المياه في حلقه ثقيلة، وأحس بأنه يهوي إلى قرار سحيق..

عندما جاء مبارك في غبش الصباح يحمل الفقيه فوق كتفه، تتقاطر المياه من جلبابه بلا بلغة ولا عمامة، مجروحاً، مخنوقاً، يصعد أنفاساً خافتة ومتقطّعة. كانت البدويات الحاذقات من أهله يثرن جلبة كبيرة بدفوفهنّ وهنّ ينقلن سروال العروس الأبيض ببقع دم براقة، من بيت الفقيه إلى بيت أبيها المصون.

طريـق الجنـة

الخطى الوئيدة المنتشية نفسها، التي ينسحب بها الليل من الزوايا الأكثر ظلمة، كان يقطع بها الفقيه المسافة الفاصلة بين بيته والمسجد، وسط جلال الصمت الذي يغيّب الأشياء والكائنات حتى أن الفقيه يودُّ لو أنه ينقر الأرض نقراً كي لا يروّع الهوام والحشرات الغافية بين الشقوق. يوقن أبداً أن هذه الخطوات القليلة التي تصل به إلى المسجد رحلة شاقة ولكنها رائعة، رحلة الخروج من الظلمة إلى النور، نور التوحُّد بالله في عزلة تامة عن العالم، فلا شيء إلا أسرار الكون المتجلّية في كتاب السكون المشرع للمؤمن لحظة يتضاءل فيها الليل الكثيف الكاسر ويتشكّل خيوطاً رفيعة يرعبها النهار، إذ لا قوة إلا بالله..

يرتفع صوته بالآذان وسط الإعراض الأبدي لقوم أهلكتهم الحياة. الله أكبر، بهدوء وعمق، ويضيع الصوت في الظلام خافتاً متقطّعاً ويحس الفقيه بطمأنينة رائعة تلفّه. يحس بجسده العفن الفاني ينفصل عنه ويتهاوى، يسهو، لم يعد غير صوت رقيق يسمو في رحاب السماء الواسعة.

كان الفقيه يظلُّ أسير إحساسه الرائع بالسمو طوال النهار وينعكس ذلك على حركاته وكلامه وحتى نظرته إلى الأشياء.

طوال الليل، وخصوصاً وقت الفجر، كان إحساساً بالسقوط يحفر شرخاً في نفس الفقيه، ولمّا بلع أول دفعة من الماء، أيقن أن أدران الجسد تجذبه إلى القعر.

الظـل

كانت الجلسة التي تجمعني بمبارك وقت الغروب عادة كل يوم تبعث فيّ شعوراً بدفء خاص، باللذّة، لذّة بطيئة تأتي مع أول الكلمات وتسري لتتحوّل إلى ضياع، إلى انقطاع عن العالم، استحيل ظلاً من غابة الظلال المحيطة بنا، والمأخوذة هي أيضاً بحكي مبارك. يا ما أفقنا على آذان صلاة العشاء، ويا ما تجاوزنا ذلك بكثير، لعلّه هو أيضاً يستشعر لذّة ما. كان يباب وفراغ الدوار، كما كنت أراه، يستحيل داخل حكي مبارك خصباً وامتلاء. ففي كل زاوية حكاية ووراء كل حجرة وداخل كل شقّ. كيف يمكن للكلام أن يبعث الحياة في ما تراه ميتاً!؟

رأى فيّ مبارك، بقدرة غريبة على التوهُّم، صورة أخرى لذاته، بديلاً أكثر قدرة على الاقتراب من الآخرين. كان يعيش انشطاراً بين الرغبة في التوحُّد والعزلة عن الآخرين والرغبة في المشاركة والاندماج معهم، وقد مثّلت له أنا هذه الرغبة المزدوجة. تمزق لا يمكن الحسم فيه، آتي من هناك إلى الدغل وأعود. تردّد مستمرّ ومربِك، يرعب مبارك بالقدر الذي يستهويه. لقد حدّثني عن الماضي السحيق، وحدّثني عن الأرض والماء

وأناس الدوار واحداً واحداً، وعن شجرة الزيتون والقبور المنسية، وتعاقب الأيام. ولمّا كنت أعود إلى البيت.. لا أعرف متى ولدت لدي الرغبة في كتابة ما يحكيه مبارك. كان الصوت المعذّب المجروح يسكنني في عزلتي القاسية. بدأت بخربشات ووجدتني بعدها أستعيده من داخلي، وأكتب عن الدوار وأهله وقد عشته في حكي مبارك أكثر ممّا عشته في الواقع. لعلّني أنا أيضاً أسير تمزق مبارك، لماذا أكتب عن الدوار وأنا أرفض الانتماء إليه، ومتى تنتهي لعبة الظلال؟

حين أعود لبعض الفقرات التي كتبتها أنكرها كثمرة محرّمة لعلاقة عصيّة بين النفور والرغبة.

الحانوت-المقهى

كانوا جماعة من سبعة يفسرون كل على هواه وبعد شهر، مشهد الفقيه المحمول على أكتاف مبارك، يلعب أربعة منهم الورق، والآخرون واحد يصب الشاي، والآخر يوزّع المستحقات بين الفريقَين، والثالث ضائع في حلم يقظة، أما الحسين صاحب الحانوت-المقهى، فقد انزوى كعادته خلف الطاولة يعدُّ أرقاماً لا حصر لها، وعندما ينتبه إلى نفسه يصيح بابنه الذي ندبه منذ أن سار على اثنين للحانوت-المقهى يغسل الكؤوس ويراقب الغلاي ويقضي حاجات طارئة بين البيت والحانوت. ثم يعود إلى أرقامه، فيتسلّل الطفل ثانية إلى الخارج ليواصل لعبته. لقد غيّر الحسين ذكرى الغريب البئيس الأصفر، اليابس الذي كانه، عندما جاء زمن الحصاد إلى الدوار، وجاوزه إلى مرحلة الدرس، وعندما وضع الزرع في المطامير كان قد أجرَ بيتاً وأصبح جاهزاً لأي عمل تطلبه منه شريطة أن يأخذ أجره نقداً. وكانت كثيرة الأشياء التي يتقنها الحسين، فبالإضافة إلى ذلك التفاني والإتقان التام في العمل، كان ينجح دائماً في أن يكشف لمن يشغله حاجات أخرى يجب أن تصلح وأعمال

أخرى يجب أن تنجز، ولمّا يصل بالريال إلى الدرهم، وبالدرهم إلى ورقة المئة يقضي الليل يخيط عليها جيب السترة التي ما خلعها من فوق أكتافه أبداً. كان لا يأكل إلا ما يجود به عليه مشغّلوه، ولم يحدث أن رآه الناس يدخل طعاماً إلى بيته، وإذا رأى البصقة يحسبها ريالاً. وعندما لا يجد عملاً يخرج إلى المزارع، فإذا وجد أحداً يسقي الأرض بعد السلام وكلمات مقتضبة انهمك معه في العمل. وإذا وجد أحداً يرفع حملاً دخل بينهما، ويجري وراء بهيمة ضالة مع راعٍ لم يطلب منه ذلك، ويقتلع النباتات الطفيلية من حقل مهمل وبعد ذلك يرفع سحنة مجهدة وعينَين ذابلتَين، فيدفع أصحاب العمل على مضض. يلصق كالعلق، ويدخل بين الجلد والعظم. الحسين المقطوع الأصل، الأصفر اليابس، الذي فتح نافذة في البيت ذات صباح، وأتى محمّلاً بالسكّر والشاي وأعواد الثقاب وقراطيس الشمع، غير عابئ بسخرية القوم الذين لم يفهموا كيف يظل قابعاً كالفأر وراء نافذته طوال اليوم ليبيع شمعة أو قالب سكّر وهم يشترون تموينهم الأسبوعي من السوق. ولكن الحسين لم ييأس وفتح لزبائنه النادرين دفتراً يكتب فيه اسمك وثمن السلعة، ولا حرج عليك أن تدفع ثمنها ولو بعد شهر أو شهرين، وأبدى ليونة ومرونة كبيرتَين في استرداد ديونه حتى أن دائنيه أخذوا يستنكفون من أن يمروا أمامه بحاجيات مشتراة من السوق.. ازدهر الدكان بعد كل مرة غاب فيها وتجاوز الضروريات إلى الكماليات التي رآها أهل الدوار على الرفوف كعلامة دخول غد مترف، وأصبح الحسين رجل المستقبل بلا نزاع، ترتبط باسمه أنواع الكولونيا،

وأنواع الصابون، وأشياء تعلق في المفاتيح وأشياء للسيدات، وحبّات لصداع الرأس، وأنواع غريبة من الحلوى، ورغم أن أغلب هذه الأشياء أكلها الغبار والإهمال، ولم يجرؤ أحد على شرائها، فإن الحسين لم ييأس لخيباته المتكرِّرة ولم يتوقف عن هوسه بالجديد ففاجأ الدوار يوماً بصناديق كوكا كولا. تردّد الكثيرون أمامها وبعد أن أخذوا يتذوقون طعمها الغريب تباعاً أدمنوها. وبدأ الرخّ عادة الجلوس مع الغروب عند الحسين، يدخّن الكيف ويشرب كوكا كولا وتبعه الآخرون، ولم تعد الصناديق تكفي للجلوس، فاشترى الحسين داراً للسكن وقسمَ البيت قسمَين وضع في واحد حصيراً، وجمع السلعة في آخر، وكلّما ضاق المكان بالزبائن أتى بالبنائين ليوسّعوه، ولا يدري أحد من أين تدبّر مقاعد سيارة صفّها على الجانبين، وأجّج التحديات بين لاعبي الورق والطاولة وأمسك بخيوط شبكة الهزائم والانتصارات العريضة، وحثّ على الأخذ بتارات يومية لا نهاية لها، وازدهرت أمور الحسين مع الغرامافون الذي أذهل الجميع، فردّدت النساء آهات فاطمة الزحافة بحرقة، وانفطرت قلوب الشبّان لخيار الهجرة الدامية والمستحيلة مع أغنية الباسبور الأخضر، وملأت عيوط بوشعيب البيضاوي، وبحّة شيخ فرقة خدوج السطاتية وحكايات عبد الكريم الفلالي صمت الدوار، وأخذت النساء يقفن على سطوح البيوت ويشرن إلى الحسين بتغيير الأغنية وزيادة الصوت. أربكته فوضى الرغبات المتعارضة وفي الحقّ خسارة البطاريات المتكررة، فذهب بالغرامافون يوماً وجاء براديو صغير عصي المزاج لا يشتغل إلا إذا خبطته، ولكنه

فتح أعين الدوار على أخبار العالم وعجائبه، وقضى نحبه يوم كان ينقل للدوار خبر مئات الطائرات التي يسقطها عبد الناصر كالذباب فحشرج، وأرسل صفيراً كعادته فخبطه السرجان المتوتر خبطة أطارته من مكانه وسقط أشلاء. ولمّا جاء الحسين براديو كبير وجديد هذه المرة فاجأ الجمع بخطب ثقيلة وحزينة أنكروها وأنكروه وعطّلوا المؤشر وهم يبحثون عن المكان الذي كانت تنبعث منه أخبار عبد الناصر ولم يجدوها، فقال الرخ: «كان القديم صغير ولكن مزيان أما هذا فبلا شك من صنع اليهود»، ومن يومها سموا راديو الهزيمة الراديو اليهودي...

كانت جماعة من سبعة، وجوه وحركات وكلام، هزائم وانتصارات تتكرّر يومياً فوق الحصير ومقاعد السيارة القديمة، وكان الملل يتمطّى ويتثاءب فوق كؤوس الشاي والمونادا التي يحوم حولها الذباب حتى يفيق على خبطة مظفرة للورقة أو ضحكة مجلجلة، وكان الحسين يحصي أرقاماً، لا حصر لها، ولا تصدق أنه في هذا المكان تصنع الانتصارات الباهرة والهزائم المنكرة في الانتخابات، وتفكّ طلاسم الجنح والجنايات الغامضة وتؤسِّس نواة مشاريع مفلسة أبداً، وتوجد في واضحة النهار أيدي عاملة رخيصة.

- مسكين لفقيه تقطع ليه شي سلك في الراس.

فقهقه الرخ طويلاً، ثم أردف بصوت مجهد:

- قال الله ولا لا في القرآن بللي الجنة تجري من تحتها الأنهار.

حرّك الجميع رؤوسهم باستغراب، فتابع:

- القضية وما فيها أن الفقيه دخل في الليل جنة مباركة ولكن معندو صحة مسكين، زلق في واد من الويدان.

تابع القهقهة التي لم يشاركه فيها إلا محمد والو ببسمته الجامدة في الإطار نفسه، استغفر السرجان وقائد المزاليط ربهما، ثم قال السرجان بجدّ:

- الفقيه من ديك الليلة وهو يسير للوراء فصحتو وفعلاقتو مع الناس.

قاطعه الرخ ببسمة ساخرة:

- معندنا غرض يرجع الوراء ولا يرجع للقدام، كلنا يوم على خوه تنرجعوا للوراء، شغلنا هو كيف أصبح غرقان في الوادي.

تدخّل صعصع بعنف وقوة صوته الخشن:

- شغلك وحدك علاه معندنا حاجة غير الفقيه.

أطرق الرخ ملياً ثم قال بجدّ:

- الحقيقة (عاود المرح هيئته وتوجّه بالحديث لقائد المزاليط)، أنت للي وضعتيه في هذ المصيبة.

اهتزّ قائد المزاليط وقال بحدّة:

- أنا؟

- لا أنا.. أنا لمشيت خطبت ليه مع علال الحجام.

- ما فيها عيب (وبنبرة ساخرة) حتى أنت، وأنا عارف بللي ما فيك فايدة خطبت ليك.

ردّ الرخ بودّ يخالطه الخجل والحزن:

- ياك.. ما في فايدة.. تتقولها في وجهي.

تدخّل السرجان لمّا رأى الحديث ولّد الحرج، وقال من القلب:

- كاملين ما فينا فايدة.. علاه اللي فيه فايدة (بصوت خافت لا يصل أذن الحسين) يجلس هنا.

استمرّ قائد المزاليط مطرقاً بتقاسيم الأسف المرسومة على وجهه ووضع الرخ الأوراق من يده وقرفص على أهبة النهوض، وامتعض صعصع وزمجر:

- فلقتوا روسنا شهر هذا بالفقيه (وألقى بالأوراق هو أيضاً من يده).

تدخّل الحسين من وراء دفتر الحسابات. إذ لم تفته كلمة واحدة.

- الفقيه رجل مليح واضع بينو وبين الناس حد، متيحرم متيحلل.

قاطعه صعصع بحدّة وتوجّه بالحديث للرخ:

- أنا لبغيت نفهم، ما كينش فيكم للي تيوضع جبهته على الأرض، وشاغلين أنفوسكم بأمور الفقيه.

ابتهل السرجان وقائد المزاليط في الوقت نفسه بصوت خافت، لله أن يهديهما، وقال قائد المزاليط:

- الإيمان في القلب ماشي في وضع الجبهة على الأرض، وقصّ بمسحة دينية لا غبار عليها قصة الأخوين التي لن يسمعها أحد لفرط ما رواها: الأخ المتديّن الذي لا يبرح الصلاة، والأخ الخدوم الذي لا يصلّي، والنبي الذي يبشّر الخدوم بالجنة المضمونة.

قهقه الرخ لمّا أنهى قائد المزاليط حكيه، وقال له بسخرية:

- حتى أنت القايد غادي تدخل الجنة بالفرجة على القمار وشرب كؤوس الشاي أما المسامر فقرن هذا مشفناك تتدقها.

خرج القائد يتعثّر في غضبه ويسب زمن الدراري، ولم يمسكه أحد لأنه سيعود بعد قليل يجرجر خيبته من الجلوس وحيداً في الخيمة، وقال السرجان بهدوء وقليل من الحزن وكأنه يختم موضوعاً طال أكثر من اللازم:

- الحقيقة شؤون الفقيه ما شي شغلنا (وهو ينظر إلى صعصع ثم ملتفتاً إلى الرخ) ولكنا كنا دائماً تنتمناو الفقيه يتزوج ويكمل دينو.. الزواج سترة.. أحنا مسلمين كيف صلينا ولا مصلياش الله للي ف يدو الحساب، ولكن الفقيه على الأقل قدام عيونا خاصو يكون كامل ما فيه عيب لأنو هو والدين شيء واحد.

دخل جابر الكيال، واستغرب للصمت غير العادي الذي يسود المكان، وسلّم بإشارة من رأسه ويده ولم يردّها عليه أحد، وسار إلى الحسين وانهمك معه في حديث، بدا من خلال الحركات والانتظام اللذين يتبادلان بهما أدوار الكلام والاستماع، وتقاسيم الهلع والعذاب التي تسيطر على وجه الحسين، أنه حديث في أمور هامة.

- جابر.. كيف حال المدينة؟

كرّرها بصوت مرتفع هذه المرة، لأن جابر لم يبدُ عليه أنه سمع، التفت ونظر في وجوه الجميع وكأنه لم يدرك مصدر الصوت، كان الكل ينتظر جواباً، ردّ باقتضاب واستدار اتجاه الحسين:

- عامرة بأهلها.

لم يعجب السرجان الجواب ولا الاستدارة.

- عرفناها عامرة، ولكن كيف وجدتها أنت؟

انتقل الحسين إلى النافذة يقضي حاجة امرأة، ولم يجد جابر بدّاً من الجواب، فقال وهو يسدّد نظرة حازمة للسرجان:

- بحال المدينة بحال الدوار.. كيف كيف.

انتفض حمادي ولد لصمك في مكانه، فقد سبق له منذ عامين أن قضى شهراً بطنجة عند أحد أقربائه، جعل منه مادة لا تنفذ لحكاياته، وللبرهنة إذا اقتضى الأمر ذلك على سعة تجاربه.

- اسمح لي فرق كبير بين المدينة والدوار (وزّع نظرته على الجميع كأنه يريد أن يحصي وقع ما سيقوله عليهم) العمارات، البارات، القهاوي، فرق كبير (ابتسم بظفر).

ابتسم جابر، كان ينوي ألّا يرد على حمادي، كما تجاهله دائماً، ولكنه أدرك أن قصد السرجان شيء آخر، إنه يسأل عن العمل، اللقمة، وسيعاود السؤال بصيغة أخرى، بعد قليل أو في فرصة أخرى، لذا يحسن أن يحسم الأمر وليس هناك ما يخجل منه.

- البارات.. العمارات.. (بالصيغة التفخيمية نفسها التي نطقها بها حمادي) الإنسان ما تيكلش الحجر، أنا سرت للمدينة وراء الخبز ولقيت بللي اللقمة حارة وصعيبة، بحال الدوار وأصعب من الدوار، في المدينة الناس داخلين سوق راسهم جوع ولا موت، ما عندهم غرض. البشر بحال النمل، قدام المسجد تتقول الناس كلها تتصلي، وقدام البار تتقول الناس كلها

تتسكر.. البشر كثير.. وكل واحد مشغلوش في الآخر، وقف وحدك واجلس وحدك. النص خدام والنص تيطلب ويسرق ومعمر القهاوي، وفين ما تلفتي توجد البوليس حتى تتحس بلا المدينة قفص كبير ما كاين فين تهرب.

قال السرجان باستغراب وشيء من الحزن.

- ثلاثة أشهر.. أو ما خدمتيش؟

- لقيت خدمة.. ولكن ما دامتش، خدمت في معمل للجلد أخذنا صاحب المعمل فواحد الصباح عشرين رجل، كان علينا نغسلوا الجلد ونرطبوه ونحكوه، وسط الخنز والملح والماء البارد وفي الليل عزلنا أحنا خمسة قال بللي عجبناه في الخدمة وعليها غدي نبقاو معاه ديما، أو ما فيها باس ينقص لينا دراهم من أجرة اليوم، لأننا غدي نبقاو معاه ديما، قلنا ما فيها باس، أعطينا راسنا للخدمة وفي عشرين يوم كملنا الجلد لي كان فالخزين، وجا صاحب المعمل فآخر النهار على وجهو حزن الدنيا كلو وقال لينا كلام على ما بقيت عاقل بللي الأزمة في هذا العالم بأسره ما شي غير في البلاد، وقال إن على الناس يتضامنوا ويضحيو وقال وهو تيحمر عينيه بلي ما بقات عندو خدمة لينا، نزلنا عينينا لرجلينا الحفيانة، شفنا البثور والجراح فرجلينا وآثار الملح شمينا ريحة الجلد الخانزة فجلودنا المقشرة وخرجنا...

رجعت تنوقف في الموقف كل صباح، تنوجد الأولاد القاريين وبنات صغيرات وزوينات... قاطعه صعصع بصوت خافت ووجه يشع بالبراءة.

- ما فهمتش معنى كلمة الأزمة.

حكّ جابر رأسه وبعد قليل من التردُّد قال:

- الأزمة هي.. هي ما كينة خدمة.. ما كين خبز والسلام.

تنهّد السرجان بمرارة وقال:

- أيام عام الحلبة هذي.

وردّ جابر وهو يرخي عينيه الذابلتين:

- في عام الحلبة كان الناس تيكلو بعضياتهم لأن القمح ما كاينش في البلاد خذوه الألمان، أما الآن فتيكلو باش يزهاو ويتمتعوا...

قضى الحسين في الحين حاجة المرأة.. وقطع بفظاظة حبل الكلام على جابر، كما اعتاد أن يفعل كلّما مسّ الحديث المواضيع التي «تغرق»، على حدّ تعبيره، فعادا لحديثهما الخاص، ولمّا كان جابر في طريق الخروج صاح به حمادي:

- غدي تعود المدينة؟

ردّ جابر دون أن يلتفت وبتلويحة من يده:

- قطران بلادي خير من عسل البلدان.

تواريخ مهملة أو دليل
الشخصيات السبع

السرجان: أونسيان كونباتون، يمثّل صورة الانضباط والنظام وسط فضاء متحلِّل وفوضى، يقبض معاشاً زهيداً جداً كل ثلاثة أشهر، يتدبّر به حياة عسيرة، ولكنها مضمونة. يحاذي الزمن كالأبدية، ما زال يمشي بآلية خطواته المحسوبة، وذقنه اللامعة وتقاسيم وجهه الصارمة التي لا تلين إلّا لانتصاراته في لعبة الورق أو للمتعة الكبرى التي يجدها في تحدّي المتعلمين بكلمات فرنسية يغمغمها كالطلاسم فلا يفهم معناها أحد، حارب في الهند الصينية، ولكنه يحكي كيف نجا من طلقات فيصل الإعدام في إسبانيا، وكيف سحق رومل في الصحراء، وكيف أكل لحم الكلاب وضاجع الصينيات الميتات تحت وابل الرصاص في اليابان. ولا تعنيه الجغرافية فالحرب لم تكن عالمية إلا لأن الناس يتحاربون حيثما وجدوا. لم يلد، وحينما يغلق الحسين الحانوت-المقهى لأمر طارئ، لا يعرف ماذا يفعل بالزمن، يصير قلقاً متوتّراً كأن الإغلاق موجّه ضدّه بالأساس، يبدي استعداده لحمل السلاح مرة أخرى، لكن مع من؟ وضدّ

من؟ فمنذ عاد من الحرب لم يمنحه الدوار قضية واحدة يحارب من أجلها.

محمد والو: بلا ميزات ولا نقائص، يسهو كثيراً حتى أنك، وهذا انطباع عام، تشك في وجوده المادي، يحتل الركن القصي في الحانوت، يبتسم في خجل ولا يتحدث إلا لطارئ، لا يدخّن، لا يسكر، لا يلعب، لا يبدي رأياً، لا يعمل.. حتى أنه بإمكانك تعداد اللاءات إلى ما لا نهاية، حرمان مطلق. شخصية محمد والو إحدى غرائب الدوار.

صعصع: ينشر ساعداً عريضاً مفتولاً فوق الحصير، وشم عليه بأخضر غامق «لا ثقة في البشر»، عندما يخبط الورقة فوق الحصير، ويدعكها في يديه، يهتز قلب الحسين ويداري هلعه ببسمة صفراء. يستقبل دائماً الباب ولا ينزل عينَيه عن المسرب، وإذا رأى سيارة قادمة يتحفّز للجري، فإن كان الدرك جرى وإلّا يلعن القادم، ويعود للعبه المنغّص بمئات الجنح والجنايات، السرقة، الاغتصاب، الضرب والجرح، تكوين عصابة إجرامية... إلخ. يقهقه صعصع ويقول إن «قديدته مالحة مع المخزن». يغيب أياماً وعندما يعود يستلقي في الكرسي الواطئ، مجهداً حزيناً، ثم لا يلبث بعد بضعة ساعات أن يعود لمرحه. يشكّل مع الرخ ثنائياً لا يمكن هزمه، فيحمد الحسين الله لكون صعصع لا يخسر. ومنذ جاء الحسين بتلفزيون صغير، لم تفته أبداً برامج الأطفال، يضحك حتى تدمع عيناه، ويهتز جسده اهتزازاً، ويعلّق في كل مرة: «أولاد دين الكلب». يذهل الجميع

كيف لهذا الذي قتل حماراً بضربة واحدة، الذي يحمل قنطاراً، كما يحمل القشة، لهذا الفظّ الغليظ، أن يذوب رقّةً لأشياء الأطفال التافهة هذه.

الـرخ: يعيش على مستقبل بلا معالم واضحة، ويقول إن على الإنسان أن ينتظر فرصته في الحياة ويغتنمها إذ لن تكرر. طال حتى تقوّس، طوله الفارع هذا هو السبب في كونه يرقبك دائماً ببسمة ساخرة من فم خرب. طيب بلا حدود وخدوم إذا احتجته، ولكنه حين يسكر يتغيّر كثيراً، فيسبّ أباه ومَن حوله ويقيء. يشتغل كمحكوم بالأشغال الشاقة عندما يكون محتاجاً بقوة إلى المال، وتراه بعد ذلك خاملاً كسولاً، لا يستطيع أن يحرّك الدجاجة من فوق بيضها. تزوّج بلا مراسيم وترك زوجته لأمه، ولمّا أخبروه بازدياد مولود ذكر في بيته تابع اللعب كأن الأمر لا يعنيه، لا يخسر إلا نادراً، وهذا ما يغضب الحسين، لأن مثل هذه التجارة تنجح بتعاقب الخسارة والربح بين اللاعبين بصورة متكافئة.

قائد المزاليط: بارت حرفته بعد أن غزت صنادل وأحذية البلاستيك الرخيصة السوق رغم البثور والرائحة الكريهة التي تخلّفها بالأرجل، فأصبحت البُلغات التي تصل يدَي قائد المزاليط نادرة، لذلك حوّل مكان خيمته إلى موضع يرى من فوق حصر ومقاعد الحسين، وأخذ يقضي وقته هناك لا ينازعه أحد في شرف صبّ كؤوس الشاي، لا يلعب أبداً ولكنه يشارك بحرارة في حمّى المباريات، ويروي حكايته دائماً باقتضاب،

مُلغَز أحياناً وتطويل ممل في معظم الأحيان. كان زمناً قاسياً، يساق الناس فيه للكلفة في أراضي الأعيان كالبهائم، وكنت لا تضمن قمحك حتى تضعه في بطنك، كانوا يأخذون تقريباً كل شيء، حتى صوف البهائم، يجمعونه بعد دزّها، وجرّب عصيم أن يعترض شيخ الدوار ويكسر رجله، ولكنهم كسروا عنقه وألقوه كالجيفة. أخذ الشيخ على قصره يتطاول ويصفع من يشاء ويسخر ممن يشاء، ولمّا انكشفَت عاقبة العنف غير المحمودة، واستحالة ردّ الصفعة، تزعّم رحال الخراز فكرة تكوين جماعة تذهب لتقديم شكوى ضدّ الشيخ للحاكم الفرنسي بالمدينة. جمع رحال بصعوبة عشرة رجال في سرية تامة، وتسلّلوا خفية، ولمّا وصلوا أدخلوهم قاعة، فخرج إليهم الحاكم. تصدّى رحال للحديث وقال إنهم جاءوا بشأن الشيخ الذي يظلمهم ويعاملهم كالدواب، وأنهم يريدون استبداله بآخر، جال الحاكم ببصره بين الحاضرين، فرآهم ينكسون رؤوسهم، فقال بغطرسة: «من أراد أن يغيّر الشيخ بآخر يرفع إصبعه». دُهش رحال لمّا رأى نفسه يرفع إصبعه وحده. فضّ الحاكم الجمع. رجع بعد ستة أشهر بأرجل مفلطحة يسحبها على الأرض بشكلٍ متقطّع كالحمل الثقيل، وجلد يتقشّر بلا انقطاع من فعل الماء والملح والسياط، برأس مطوق بالبياض ولحية مشتتة أجهض نموها تعاقُب الأيام القاسية، وعينان لا تقويان على رؤية النور، رجع كافراً بالجماعة مجهَداً حزيناً، لكنه يبتسم في وجوه الذين خذلوه كلما صادفهم، ويحكي لهم عن الرجال هناك في الزنازين. وفي محاولة للتكفير ولإغاظة الشيخ أطلق عليه أحدهم يوماً القائد، وحتى لا يلتبس

الأمر مع القائد الحكومي أضيفت إليه بعد أيام المزاليط، الفقراء، فأصبح رحال من يومها قائداً من صميم الأهالي، بالجلباب الوسخ والأرجل المفلطحة التي لا تسعها البلغة، بلا حرس ولا نياشين، يقاطع الانتخابات ويعتزل الناس زمن، يتناحر المرشّحون في حرب ملء بطون الناخبين الجائعة وعندما يجمع كل منهم أصواته ويختفي، يعود قائد المزاليط ليضحك في وجوه الناس التي بهرتها الألوان، ويقول أبداً: «ما كاينة فايدة غدي يعودوا مرة أخرى».

بوزكري ولد الحداد: يقضي وقته كله في الدوار، يأتي من بعيد فوق درّاجة كالعفريتة، تنطُّ فوق الحفر وتدوس الشوك والحجر الناتئ، ومجاري الماء وتصل به سالماً، لا يتغيّب أبداً مثل السرجان وقائد المزاليط، وإذا حدث ومرض، فإنه سيعصب رأسه وينام في الركنة. يحدّث الجميع، لكنه لم يفتح صدره أبداً لأحد ليروي له أسراره، كل ما كان يبوح به هو أن أباه ضيّعه صغيراً، وحمّله مأونة إخوته كبيراً، من أين؟ لا أحد يعلم.

حمادي ولد لصمك: يحبّ بسرعة، وينسى بسرعة، ليحبّ من جديد، حتى أن حياة حمادي تمضي هكذا سلسلة من القصص الغرامية المكرّرة، مقدم نساء، تسميه أمه ويكره أباه المريض جداً النظر في وجهه، وعندما ضغطوا عليه ليتزوج لم يرفض ولكن أين هي المرأة المناسبة؟ أمعن حمادي أكثر في قصص حبّه ونسيانه، تحت ستار الشرعية التي يقدّمها له قصد البحث عن زوجة لن يجدها أبداً، لأنه خُلق لكل النساء، كما يقول.

القبـر

الموت حدّ بين عالمَين، قال الفقيه بصوت مجهَد وهو يكفف دمعه: «إن رؤية القبر تبكي، لأنه أول خطوة في الآخرة وآخر خطوة في الدنيا»، وسبلَ عينَيه بأسى عميق للتراب الذي دأب على إهالته إلى قاع الحفرة جابر بإيقاع سريع وعيناه تفيضان بالدموع. التحق الرخ بالجمع المتحلّق حول الحفرة، يحمل جرة ماء كبيرة، ولمّا أراد قائد المزاليط أن يفسح له الطريق، أخّر رجلاً في شقّ قبر تحجبه الحشائش، غاصت رجله فيه حتى الكعب، وتعرقب إلى الخلف، ولو لم يمسك به أحدهم لارتطم رأسه بالشاهد الناتئ فطفح وجهه بالخجل، تصبّب عرقاً وكظم الرخ ضحكة مجلجلة. رفع الفقيه رأسه ليقول بجلال مهيب: «للأموات حرمتهم، وتلك العظام الرميم ستبعث يوماً حية تدلي بشهادتها»، فابتعد كل من تطأ رجله قبراً، وتقدّم الرخ ليصبَّ الماء على التراب الذي سوّاه جابر وثبّت حجرة عند رأس الميتة، ورفع الفقيه يديه إيذاناً بنهاية مراسم الدفن وقرأ باضطراب بعض آيات ختمها بسبحان الحي الذي لا يموت، وهو يحدج بنظرات شامتة فقيهين جاءا من

الدواوير المجاورة، سيبقيان بعد الدفن يرتلان ما تيسّر حتى ترق قلوب أهل الميت فيدسون في يديهما «شي بركة». تنحنح قائد المزاليط الذي أراد أن لا تفوته المناسبة دون أن يقول كلمة: «كلنا لها»، فسحبه الفقيه من يده قبل أن يضيف كلمة أخرى، وسارا وخلفهما الآخرين ينحدرون ببطء ويحاذرون القبور المتآكلة، وهمس له وهو يضغط على أصابعه، وعلى شفتيه طيف ابتسامة: «لا تنسَ القبر روضة من رياض الجنة، وحفرة من حفر النار»، فسحب قائد المزاليط يده وابتعد عن الفقيه وهو يلعن في سرّه حرص الفقيه على أن ينغّص عليه حياته بدعوته للصلاة في كل مناسبة، وقد قلت له مراراً: «الله يهدي من يشاء وأنت تريد بصراحة أن تدخل في أمور الله»، فيردّ عليه بطيبته: «ألعن الشيطان»، فأقول له: «تزوّج وسأصلّي»، فيبتسم ويمسح وجهه ويغيّر الحديث. التقت عينا الفقيهَين وقد بقيا وحدهما، وابنة الميتة الصغيرة تحضن القبر الذي يواري أمها، فشمّرا عن جلبابيهما الداكنَين، وقد فهما مغزى نظرات الفقيه، وهرولا مبتعدَين.

* * *

عدت بخُطى زائلة إلى البيت، ولم تفارقني صورة الدفن أبداً، ماتت سيدة الفواجع المثلى، مات فيض الحنان، ماتت المرأة الجميلة جداً الحزينة جداً، ماتت المرأة التي جاءت باستمرار إلى مغارة سيدي مول الواد، ووضعت شمعتَيها في وجل، ودسّت في يدَي مبارك شيئاً ما، ولم ترفع فيّ عينيها أبداً،

وأكون سكران فلا أميّزها، لكن مبارك يحكي لي باستمرار عنها، كانت ترقد في صمت الكفن الأبيض على حافة قبر حياتها الخائبة مستسلمة كـ«طائر رفسته خطوات الريح»، والرجال من حولها يفرغون ما في أكبادهم من مرارة وحزن، ويمنحون صمتها أعيناً محمرّة كالجراح يمسحها الذهول كأنها تشيّع أول ميت في تاريخ الدوار. تناثر الجسد الجبلي الشاهق تحت الأرجل، الجسد العصي الذي لم ينل منه الزناة ولا الزمن المخاتل، وبدا القبر المفتوح مزهواً وسط سحائب البكاء والعيون، لأنه سيأوي غربة وفرادة المرأة التي تمنّى كل الرجال المتحلّقين أن يأووها في الليالي المقفرة إلى صدورهم.

كانت النساء، نساء الدوار كلهنّ في ملاءاتهنّ البيضاء بعيدات عن الرجال، جماعات كالموج، وبينهنّ بناتها الثلاث، بضع صراخ، بضع نواح، ودموع محفورة في صمت العيون. بلا استثناء روعهنّ الحدث، وخرجن في البياض ينشرن في الأرض القاحلة أكفاناً، أكفاناً للمدى، لسرّ التراب الذي استردّه التراب.

«اللهم بطن الأرض ولا سطحها» قال الشيخ وسار فوق سطح الأرض، كأنه تكلّم أو سار خارج إدارته. وقالت جدتي وهي في النزع الأخير تعتصر اللحظات الباردة التي تدفع جذوة روحها للخفوت: «عيشة تحت شطبة ولا ضيقات القبور»، وماتت خارج إرادتها، وأهيل عليها التراب والحجر بلا رحمة. ليس كالموت في دفعه للأشياء حين يأتي للانحلال والتناقض، إذ الموت أعمى، حفرة مفتوحة في وجه كل الجبهات، كنت أبحث عن فعل أقاوم به هذا الإحساس المريع بوطأة الموت، ووجدتني

بلا وعي أتمم ما كنت قد بدأت من كتابة عن المرأة الجميلة جداً الحزينة جداً.

اغتسلت شجرة الزيتون، وانتصبت أوراقها الصغيرة الكسلى التي أثقلها الغبار، وكنت ترى في هذا الصباح قطرات كاللؤلؤ لم تتحرر بعد من الأوراق لتسقط على الأرض، وتألّقت خضرة فروع الصبّار الغامقة الذي يمضي بمحاذاة المسرب إلى أسفل المقبرة، وسار المتأخّرون إلى المزارع بين البريق المتطاير الذي يحدثه وقوع أشعة الشمس على الأحجار الملساء وطين الدور المبلّل بالماء وراءهم ينضح بالبخار، لقد انسحبت لتوّها آخر سحابة من السماء مخلّفة زرقة هائلة تمزّقها أجنحة طيور بيضاء. وكما يحدث دائماً بعد سقوط المطر لمدة طويلة، تخرج الشمس خجولة، ويرى الناس الأشياء كأنهم يرونها لأول مرة جديدة نقية متألّقة.

من أوراق مصطفى

17 أكتوبر . . .

سرت حتى اعترضني الوادي، فحوّلت وجهتي إلى الخلاء، تعوّدت أن تنتابني مثل هذه الأزمات بشكلٍ شبه دوري، أسير بلا هُدى، حتى يتعرّق صدري، وتنقشع الهالة السوداء التي تخنقه وأنتبه إلى نفسي بعد أن أكون قد سرت لمسافة طويلة جداً، وأنا أحاور أناساً وهميين . . تذكرت اليوم بقوة مريم وبدأت في كتابة رسالة لها .

قلت لها :

- سأكتب لك كل يوم رسالة .

تضحك وتردّ :

- قُل كل سنة .

- أنا لا أمزح

- وأنا أيضاً . . حتى إذا كتبت فستتوقف بعد رسالتين، ستحس بأن الحب لا يمكن تعويضه بالورق والكلام المكرّر .

- ولكن ذلك الكلام به قلبي. . .

- ستكون الرسالة الأولى أصيلة، وبعدها ستجد بأنك تكرّر الكلام نفسه.

- هذا يعني بأنك لن تكتبي لي. . .

- سنلتقي في العطل، أكتب مذكرات، وسأكتبها أيضاً، هذا أفضل، لن تجد من يأخذ منك الرسالة هناك، وحتى إذا أخذها المقدّم فإنه سينساها في قَبّ جلبابه سنة. وسأقرأ لك وتقرأ لي.

- ألن تكوني وحيدة هناك.

- إننا دائماً وحيدون. . سآخذ أمي معي حتى أتعود وسأكوّن في كفالة البيداغوجية العامة والخاصة والتجريبية، مدجّجة بالكلام كما ترى.

نضحك معاً، وأضحك من نفسي في هذا الخلاء ومن الكلام المترف الذي عبّأونا به، ولو رأوا منظر القسم والتلاميذ لخجلوا من أنفسهم وانكتموا إلى الأبد. يأتيك الطفل يأكل القذى عينيه يلبس خرقاً، بعد شهر من الدخول، ليخبرك بأن أباه لن يستطيع شراء اللوازم حتى يبيع العجل، ومتى يبيع العجل؟ حتى يسمن؟ ومتى يسمن؟ الله أعلم، ويتغيّب آخر أسبوعاً، أين كنت؟ يرعى الغنم وأخوه مرض وأبوه أقسم أن يطلق أمه فغضبت وذهبت عند أهلها وأخذت معها أخته التي كانت تخرج الغنم للمرعى بالتناوب مع أخيه المريض. . . إلخ، ويأتيك الرجل ليأخذ ابنه يورد البهائم في الوادي. ولماذا لم تنجز أنت فروضك؟ يقسم لك بأن قنديل الغاز تعطّل والحسين لم يستبدل

القنينات، واليوم أو غداً سيعود النور حتماً إلى البيت. . وفي الأيام الأولى عندما التفت إلى السبورة يطير واحد أو اثنان إلى الخارج بخفة ويجري إلى البيت، أمسك به، لماذا خرجت؟ منتهى العبث، رأى أباه قادماً إلى الدار يحمل فاكهة، وإذا لم يكن موجوداً فسيقتسمونها ولن يتركوا له نصيبه، منتهى العبث.

تلك المرأة الجميلة جداً الحزينة جداً

-2-

. . . ضاعت الأرض، ولم يبقَ لها إلا أن تدخل صراعاً من أجل البقاء، لا سند فيه غير حيطان الستر الصماء التي فضلت لهم بعد ذهاب كل شيء. خرجت للحقول بين الرجال، حملت الفأس وشقّت الأرض، اعترضت الماء في المجاري القوية، ورمت يديها الجامدتَين كقطعتَين غريبتَين عنها في الصباحات التي يدفع فيها البرد القارس الأشياء للانكماش والدخول في بعضها البعض في الأرض الرطبة وبين الحشائش الندية اللاسعة، تقتلع الطفيليات وتبحث عن حبّات الزيتون أو روث البهائم للفرن أو تجني الغلّة. كانت نساء الدوار يخرجن للمزارع بحسب المواسم وحاجيات العمل إلّا هي كان ما يتجمع في يديها يتلاشى كالوهم، ثم في الدور الأخرى تجدهم، وعلى تفاهة الأجر اليومي، سبعة أو ستة أيدي عاملة، حتى الصغار يدفعونهم للحقول. أما هي فوحدها تتعب. كبرت بناتها الثلاث ولم تفكر أبداً في أن يشتغلن، وما الفائدة؟ عيشة أفضل، يكفيها أن تتعب

وحدها، وحتى الذين يخرجون بستة يعيشون كالبهائم. وها هي الحياة تمضي، لم يعد أحد يموت من الجوع، وإذا قضى الله أن يعملن، فسيعملن أو يسترهنّ أزواجهنّ. كانت الصفرة الراعشة التي نصبت هالتها على عينَيها تخجل من التورّد الأبدي لخديها. ما عرفت غير الكحل والسواك في حياتها ومرق وجهها من المحن، من ليالي البكاء، وبقي دوماً بهيّاً متألّقاً. عرفت دوماً كيف تنفلت من الكلمات الجميلة التي ما اقترب أحد منها في المزارع إلا وقالها لها، وحدست الرغبة العمياء حين تولد في العيون وتجللها بالظلام وعرفت كيف تصدّها وتخنقها. تأخّرت ولم يعترض طريقها أحد. سارت في الصبح والظلمة تسحب رجليها بتثاقل ولم يفكر أحد في النيل منها. كانت في عينيها قوة رادعة وفي سيرتها نقاء وطهراً، جعل حتى الذين يزجون الوقت بأي كلام والمرضى بنهش الأعراض يتورّعون عن ذكرها بسوء.

في إحدى الأمسيات كانت عائدة، ولمّا اقتربت من الدوار، اختفى تماماً من أمامها ولم تعد ترى إلّا سواداً، ولم تقوَ رجلاها على حملها فتهاوت إلى الأرض بقلب يختلج كجناحَي طائر ذبيح. أحست بمسامير تخزّها في كل صدرها، وبعد أن استراحت تحاملت على نفسها وسارت مشية العمر يتناسل المتر أمامها ويصبح أميالاً. وأكبرت أن ترى الخوف والدموع في عيون بناتها، فأخبرتهم بأنها ستنام للتوّ لتنهض باكراً. لم تنم ولم تستطع أن تغادر الفراش، وتتالت نوبات الكحّة التي يهتز لها جسدها كله ومعه حيطان البيت المتآكلة. وعرفت مصدرها، كانت عميقة ينشدّ لها صدرها كله، ثم يتقلّص ويضيق. بكت

طويلاً وهي تتذكر زوجها والعذاب، والذهاب والإياب والمستشفى والممرّضين، والحبوب التي كقطع الكلس، والعجز وليالي الأرق والكحّة، وبكت.

أينتظر جسدها المحكوم بالعذاب كل ذلك؟ من أين لها بالقدرة على أن تتحمل أكثر؟ كانت وجسدها في ملكها لا تكاد تنام، تعمل وكأنها لا تعرف التعب، تحس بأنها قادرة على تحدي كل شيء. وها هو جسدها ينكسر كالقلة شظايا بين يديها ولا أمل في جمعها. كانت وجسدها في ملكها تحس بأن الزمان بكل الأحزان التي اعترض طريقها بها، لا يمكنه أن يقهرها ما دامت تمتلك الأهم، إصرارها وصلابتها. صار جسدها السند الثاني بعد الأرض إلى صفّ الزمن، ولن يمهلها حتى ترى الجهة التي ستأخذ الأقدار إليها بناتها، ها هو الركن الذي حاصر المرض فيه زوجها وشدّد الخناق عليه، ولم يدع له من سلاح لمواجهة العالم القاسي إلّا نظرة طفولية مستغيثة ليصعّد بها بناته وزوجته صباح مساء، ينظرها بصبر عنكبوت. أتعاود هي أيضاً تلك النظرة العاجزة، وبناتها يمتن أمامها من الجوع؟ لم تنم لليلة الرابعة، وكحّت حتى اهتزّت الجدران المهترئة، وأصبحت واقفة يسندها القرار الذي جهّزته، لن تستسلم حتى إذا كان عليها أن تموت فستموت واقفة. خرجت بعد أيام واشترت الصوف، وأخذته للوادي وأخذت بناتها معها، غسلن ونصبن برميلاً وصبغن الصوف، ونصبت في الدار منسجاً كبيراً، لم تفارقه إلّا لحاجة ملحّة. كانت تأكل وحدها وراء الخيوط العَمودية الرفيعة التي تحجبها، وتنام وحدها، ورآها وهي في الحق تخاف

العدوى على بناتها، وكل أسبوع تأخذ ما حاكته إلى السوق وتشتري الصوف وتعود، لم تتجاوز في سنواتها الأخيرة أبداً البيت والوادي والسوق، وخفت رجلها من الدوار ونسيها البعض حتى الذين صادفوها بجانب الوادي أو في المسرب وأنكروا النحافة التي التهمت كل شيء فيها. أقلعت عن الذهاب إلى السوق والوادي وتكفّلت بناتها بالمنسج، فقد ثقلت الخلالة في يديها ولم تعد تقدر على حملها وعلى الخبط المتلاحِق بها. أحست، وهي تراهم ينصبن منسجاً آخر ويعملن بلا انقطاع أنهنّ لن يمتن من الجوع، فقررت أن تطهّر روحها من المرارة والأحزان، وأن تتصالح مع القدر في أيامها الباقية. فبدأت بتجديد البيت ورمّمت الأماكن الخربة، وطلت الجدران بالبياض وملأت كل الأماكن بالمحابق حتى الأواني القديمة والعلب ملأتها بالغبار وغرست فيها الحبق، ورعت الحمام وحرّرت ذاكرتها، فحكت بلا انقطاع لبناتها حتى يتطهرن معها.

لن يلفحنا بعد اليوم النغم الحزين الغائر في عينَيها المتعبتَين.

لن تخفق قلوبنا بنبض خاص ونحن نراها.

لقد تقاسمنا حبّها، وتقاسمت بيننا بسمة أمومية، ومسافة لم نقدر أبداً على اجتيازها، كانت حلماً حملناه كلنا في صدورنا، وستبقى وهي تحت التراب حلماً نحمله ما حيينا.

من أوراق مصطفى

23 نوفمبر . . .

تعرف الأيام دوماً كيف تأخذ من نفسك، لتدخلك في تفاصيلها الأكثر تفاهة. فتدور معها حتى أن ما كنت تراه مستحيلاً، يصير ممكناً. مضى، الآن، شهران وبضعة أيام، وكنت في أيامي الأولى أرى أنني لا يمكن أن أصمد طويلاً وأقاوم هذا الثقل الذي يخنقني ويحيل هذا الخلاء السحيق المحيط بي قيداً يمنعني من الحراك. أدرس وآكل وأنام، وقد أخرج إلى جانب الوادي في المساء، وآخذ معي الراديو وأجلس حتى المغيب، غير أني أقلعت في الأيام الأخيرة عن هذه المتعة الوحيدة. وقف ورائي ذات مساء ببضعة خطوات رجل مخبول يلبس مزقاً لا تكاد تستره وأخذ يتأمّلني ببلاهة، وهو يمسّد لحيته الكثة، ويبتسم. حدقت فيه بعيون زاجرة، فأمعن أكثر في تأمُّلي، وقدّرت ما يمكن أن يقوم به من سلوك غير متوقع، فنهضت وسرت وهو يتبعني بأرجل حافية. وكلما التقت عينانا ابتسم حتى ابتعدت عن الدغل الذي توجد فيه مغارة تضع فيها نساء الدوار شموعهنّ ويبتهلن،

إذّاك توقف بلا حراك، وتواريت عنه وهو لم يتحرك بعد. قال لي جابر بعدها إن اسمه مبارك، وقد كان صديقاً لسي معتصم، المعلم الذي كان قبلي هنا، وقد أصيب بخلل في عقله عندما أخذه الدرك، وعلى الرغم من أنه أكّد لي طيبة الرجل وأنه لم يصب أبداً أي مخلوق بأذى، فإني لم أجرؤ بعد على الذهاب إلى هناك.

سقط المطر لمدة يومين من دون انقطاع تقريباً، فأجبرت على البقاء في البيت. جاء جابر، كان سعيداً، لكنه أيضاً كان خائفاً. جهّز كل شيء، اشترى الزريعة بالفلوس التي اقترضها، وأعدّ السكّة واكترى البغل سلفاً من حميدة العيان، وانتظر، تناقصت أيام الحرث يوماً بعد يوم لكنه لم ييأس، فجابر أولاً وأخيراً فلاح على الرغم من كونه لم يمسك المحراث أبداً. جاءت خطوط الحرث الأولى متعرّجة، غير نافذة إلى عمق الأرض، وستلتقط الطيور حتماً كل الحبوب الملقاة. كان جابر غاضباً يضرب بلا رحمة البغل، وينزل بكل قوة على المحراث. أخذ فلاح اللجامَ من يد جابر، أحزنه ما رأى وهو يقول له إن المزية ليست في استعمال القوة، وتعذيب الدابة، بل في القدرة على وضع سكّة المحراث في المكان المناسب، وتعديل هذا الوضع كلما اقتضى الأمر ذلك، وسار بالمحراث في خطّ مستقيم يخرج وراءه أعماق الأرض الرطبة، وترك جابر بعد أن عرف كيف يحرّك المحراث ويفجّر الأرض ينابيع حمراء. قضيت الأحد كله مع جابر، ترك لي الدراجة أمام باب البيت ففهمت بأنه يدعوني لألحق به، ولحقت بنا محجوبة حاملة معها طعام

الغداء. لم تلتقِ عينانا أبداً منذ أن تعرّفت إليها وتبادلنا السلام. كلما صادفتها تحييني بخجل ولا ترفع فيّ عينيها أبداً، وتعلو الحمرة خدّيها.

وجدته أيضاً في الدوار، كان ينهش كسرة خبز، رآني وتوقف، وابتسم وتابعني بنظرته البلهاء، ما سرّ هذه النظرات التي يلاحقني بها هذا الرجل؟

بـيـن جملَين

أيمسكها على هون، أم يطلقها؟ يمضي الفقيه بركب فاشلة، يحاذر في كل مرة يخرج فيها للمسجد أن يعترض طريقه أحد. لا يسلّم، ولا ينظر في عينَي أحد، وتؤجّج النظرات التي تريد أن تقول شيئاً للذين يصلّون خلفه النار التي تضطرم في قلبه. لو جرفني تيار النهر. لو سقطت إحدى صواعق تلك الليلة فوق رأسي وأرسلته في الريح شظايا. وكانت مشيئة الله، وكان مبارك هناك. ينظر في عينَي العدل وفي عينَي والد مباركة، تزوّج فلان بن فلان فلانة بنت فلان على أنها بكر.. وأنكس رأسي، ويبتسم أبوها ابتسامة عريضة، يقطعها منخره الطويل المعقوف نصفَين، وليلة الدخلة يقف مزهواً يرفل في البياض، وددت لو صحت في وجهه، وأقمت فضيحة وصرخت في وجهه وأنا أخنقه: «أنكحت الثيب لا البكر؟»، أو كنت قلت له فقط بحسم وأنا أعطيه ظهري: «خذ بنتك لقد وجدتها مستعملة». سار بلا هُدى إلى النهر، ودفع جسده للغرق بلا هُدى. كان يعدّ العدة ليحسم الأمر، لم تكن أبداً له، كانت نزوة، وكل إنسان يمكنه أن يخطئ، ولكن وهو محمول فوق أكتاف مبارك يقطر ماء، ويرى

العالم بالمقلوب بعينين شبه مغمضتَين، ومفاصله تخزه، رأى سروال العروس يخرج من داره بدم كذب والزغاريد والدفوف تملأ صباح الدوار، أيقف وينهي المهزلة؟ من أين له بقلب جامد، وركبتَين منتصبتَين، فينتزع السروال من الصينية ويرفسه.

أيمسكها على هون أم يطلقها؟ يصلي لله صلاة استخارة، ويتدافع المسلكان في صدره، يتقاطعان، يتداخلان، ولا ينام. يتأخّر في المسجد كثيراً، ويخرج في منتصف الليل لصلاة الفجر، لا ينظر في وجهها أبداً. يجدها هناك في الركن نائمة فيأخذ لحافاً ويقرفص في الركن المقابِل. لا يستطيع أن يقربها ولا أن يكلمها. كان مخذولاً منكسراً ونظرت في عينيه بتحدٍّ. تنام أو تتظاهر بالنوم، وعندما تلتفت إلى جهته يغرس رأسه بين ركبتَيه. أخته تنتظر منه موقفاً، تدبّرت كل شيء تلك الليلة، وجنّبته الفضيحة، وعليه أن يتصرّف، أن يقوم بما يقوم به الرجال في مثل هذه الحالة. أمس كانت تعنّف ابنها الذي لم يرد أن يخرج البقرة إلى المرعى، وقالت للطفل الصغير، وأنا أسمع وهي ترفع صوتها لتسمعني: «الله يلعن الرجالة بحالك». ولا تكلّم هي أيضاً مباركة، تظلُّ كالمنبوذة في حُجرة الفقيه، وتنام الأخت مع أولادها في الحُجرة المقابلة. يقترب منها ليقول لها: «أشيري علي، دليني»، ويخاف أن يعطيها الفرصة لتفرغ قلبها المحتقن. أعرف أختي، ستقول ما لا يجب أن يقال، ستسبني وتبهدلني، وأنا لست في حاجة إلى بهدلة أخرى. لا يبادلها من الكلام إلا ما لا بدَّ منه، ولا ينظر في وجهها منذ مات زوجها، جاءت بأولادها لترعى شؤونه، وكسبت مع الأيام بقرة وبضعة

رؤوس من الغنم، وقطيعاً من الدجاج ينتشر في الدوار كله ويصل حتى المدرسة وضريح الجد، ويا ويل من فكّر في سرقة واحدة، ستكتشفه رحمة الغواتة حتماً، وتسمعه طوال أيام ما لم يسمعه طوال حياته، فتبعث مثالب الأصل والجدود، وتمرُّ بالموتى واحداً واحداً وتقف عند الأحياء، وتصل إليه فلا تترك كلمة نابية إلا قالتها، تسبّه في وجهه، ثم من الباب، ثم من فوق السطح، وكلّما رأته هددته بالمخزن ولا تنسيها بعد شهور إلا سرقة أخرى. ويوم زغردت خدوج أم مباركة إيذاناً بالحدث السعيد، قال الكل: «الصح لا يقف في وجهه إلا الصح»، والفقيه واقع لا محالة تحت تأثير السحر، خدوج قادرة على كل شيء، قادرة أن تأتي بالبعيد، وتبعد القريب، وأن تخلق الأفراح والأحزان. خدوج بمئات الصرر، بالوجه المروع، والشعر الأبيض الذي يخرج خصلات كرؤوس الأفاعي، بالجسد اليابس الذي لا يعرف المرض ولا النوم ولا الجلوس، خدوج التي عملت الكسكس بيد الميت، وجمّدت الماء في حرّ الصيف، ورقّصت المغرفة، وجعلت البئر يموء كالقطة، وأطعمت زوجها لسان الحمار ومخّ الضبع، فأصبح هكذا لا يكلّم أحداً ويتحدّث بكلمات ثقيلة ومتقطّعة لا معنى لها. خدوج التي يخاف الناس على أثر أرجلهم إذا ساروا أمامها، ولا يأكلون من يديها، وإذا أصبحوا عليها عادوا للنوم، وفي كل حركة منها مكيدة، وفي كل كلمة طلسم. يفطر الفقيه بعد أن صام طويلاً على بنتها التي كانت حتماً ستبور، وإن كانت خدوج حين تذكر سيرة الزواج بين النساء، تغمز بعينيها، وتضرب كفّاً بكفّ، وتقول إنها قادرة على

أن تأتي بزوج بنتها من شيشاوة. أيمسكها، ويضرب في الأرض بها، إلى حيث لا يعرفه أحد؟ أم يطلقها، ومقاطع الحقوق عند الشروط، وقد اشترط أن تكون بكراً ويضرب بعد ذلك في الأرض، بعيداً عن كلام الناس، بعيداً عن كل عين رأت السروال والدم الكذب؟ أم يسلّم أمره للزمن بلياليه الباردة متجمعاً في ركن البيت. ولكني لا أستطيع أن أقربها يا رب، ولا أن أكلمها، رأت في وجهي بعينَين واضحتَين لا أسف ولا تسول فيهما، كنت أنسحب مصعوقاً، وهي هناك تدفعني بعينيها إلى الارتطام بالجدار، حتى ثيابي لم أتحكم في جمعها على عورتي. ولا أستطيع يا رب أن أكون مثلهم، فما زرعته في صدري يخنقني، وكلامهم يرعبني. كيف أعيش بينهم؟ سيقولون لم يقدر عليها، ويقولون ويقولون.. ويتغامزون وراء ظهري ولعلّهم يفعلون ذلك الآن. حين أسير وأفكّر يتنازعني المسلكان وكأني مشدود إلى جملَين، واحد عطشان، والآخر جوعان، يجذباني بلا رحمة إلى جهتَين متعاكستَين حيث الماء والطعام.

الجـدّ

أيمكن أن تحب هذه الأرض كما أحبها مصغون؟ أيمكن أن تلفظنا كما لفظته ولم تمنحه قبراً يأوي عظامه؟ ترى ضريح الجدّ الأكبر، هناك، كان من المفروض أن يكون ضريح مصغون إلى جانبه ولكنه مات بعيداً. هذه الحكاية نحكيها باستمرار وبلا ملل، ستسمعها بتفاصيل مختلفة بشيء من المبالغة، وأيضاً بفيض من الاعتزاز والأسى، ترى هذا الخلاء، تراه يحيط بك من كل جانب ممتدّاً سحيقاً، لقد منحه مصغون لفخذتنا ورحل.

تبدأ الحكاية باحتضار الجدّ الأكبر، لم يقدّر أبناؤه السبعة أنه سيتهاوى بهذا الشكل المريع. أحاطوا به باكين، يشلُّ الخوف حركتهم، فأشار لهم بيده المحطمة، اقتربوا منه أكثر: سأموت، امسحوا الدموع من أعينكم، أنتم رجال الآن، ما كنا بالدموع لنطوي الصحاري، ونجتاز الوهاد والجبال، ونخوض حروباً لا نهاية لها. ما كنا بالدموع سنقدر على التغرّب وترك الصحراء التي حملنا ذراتها في مسامنا، وأثخننا حرّها وتقلُّبها بالجراح.

تذكرون وصولنا لبلاد الهبط، كنتم صغاراً، كنت أحس بأن تلك الأرض تصدّنا وقلوبنا لم ترتح لها أيضاً، حملت المكان المحلوم به في القلب، أناخوا الجمال هناك، ونصبوا خيام الوبر، وخرجت بكم ليلاً. كان من الممكن ألّا نصل، تهنا واعترضتنا المياه وتسلّقنا جبالاً، وأعطينا مالاً كثيراً كي لا نذبح عن آخرنا. كنت أسمع أعمامكم ورائي يتهامسون متى سيقف؟ إننا نسير نحو صحراء أخرى، ولم أعبأ بهم، ولمّا اجتزنا هذا الوادي خفق قلبي بالضبط في هذا المكان الذي أنام فيه. قلت: «سنقيم هنا بإذن الله»، قطعنا الأشجار وبنينا دوراً، وتوالدنا وسط الخيرات. عليكم أن تستعظموا أبداً عبورنا وتأخذونه عبرة، بوسع الإنسان أن يسير إلى جنّته عوض أن ينتظرها.. جمعتكم لا لأقول هذا الكلام، العِبَر تُنسى دائماً.. لذلك أريد أن أضع حدّاً من الآن للنسيان. ستنسوا بأنكم إخوة من أب واحد، ستولد الأحقاد والضغائن بينكم، وأول شيء وآخر شيء ستتنازعونه هو الأرض. اسمعوا، لم نكن أبداً فلاحين، كنا رعاة نجري وراء الكَلأ، أحببنا كل أرض منحتنا الحياة، وهجرناها بلا أسى حين تمحل، حملنا كل الأماكن في قلوبنا، وحملنا نسيانها أيضاً، أريدكم الآن أن تحبّوا هذه الأرض.. أن تمنحوها كل شيء، وستعطيكم حياة دائمة مستقرّة.. لن تخلف هذه الأرض وعدها، سمعت نداءها في قلبي وأنا هناك في الصحراء.

سأموت، وقبل ذلك أريد أن أقتسم الأرض بينكم. اسمعوا ستحملون محاريثكم، وتحرثون الأرض بلا توقف لمدة شهر،

وهي المدة التي بقيت من عمري، وسيأخذ كل واحد ما حرثه نصيباً، وما تبقّى سيكون أرض الجموع، ترعون فيها كلّكم إلى أن يأذن الله بتقسيمها هي أيضاً. لن تحبّوا الأرض حتى تُدمي أرجلكم، وتُسيل عرقكم وديان، وتسمعوا نداءها هنا في القلب، وحين أموت ادفنوني في أرض من حرث أكبر مساحة منكم، أريد أن يحفَّ بي نسله، وأستمع وأنا تحت التراب، وأنا تراب، إلى أصوات المحاريث وهي تشقّ الأرض، تبعث الخيرات الغافية في ذراتها.

أشار الجدّ بيده المحطمة إليهم أن يخرجوا، وفي الصباح خرج يتحامل على نفسه كما يتحامل قرص الشمس هناك في البعيد، وركب فرسه، وسار بينهم وهم يحرثون، رأى عزمهم وعرقهم وابتهج، ورأى مصغون بينهم فريداً في اندفاعته، في صبره وقوته. توقّف وقال له: «قف يا أبتي لأقول لك شيئاً، إني لأدفع هذا المحراث لا رغبة في أن أحوز أرضاً أكثر من إخوتي، بل لأثبت لك أننا جديرون بهذه الأرض، وجديرون برضاك».

قُل شيئاً يا أخي، اعترض، قُل لي توقف وسأسكت حالاً، حرّك رأسك على الأقل، لا يمكن أن أستمر في الحكي وأنا أراك هكذا ساهماً، من يضمن لي أنك تسمعني؟ مهما حاولت لن تفهمنا، إنك تسمعنا، وأراك في الليل تكتب، قلت لي إنك تسلّي نفسك وتملأ الوقت. لا تضحك، أيمكنك أن تسيل الدم؟ منذ سنوات كنت أحكي عن الجد هكذا، وصلت إلى قوله: «لن تخلف هذه الأرض وعدها»، فقاطعني عمر أخ الفقيه، وهو يقف

ويعطي للجماعة ظهره ليخرج، همس: «كذب الجد»، ارتميت عليه وأمسكته من عنقه:

- الجد مشي كذاب.

- فين هو وعد الأرض، ها هم الناس قدامكم، شكون فيهم لي ما عطاش للأرض كل شي واش اعطاتهم، شوف.

- الجد ماشي كذاب.

- الجد بن آدم قال كلام زين، كل من تولى أمر جماعة تيقول كلام زين للناس باش إعيشوا به، لكن الأمور غير ذلك.

- إلى كان الجد كذاب، خصنا نهدموا الضريح، ونجتمعوا كلنا، ونقولوا لبعضنا: شكون أحنا؟ وش تتعرف أش تتقول؟

تراجع وكأنه أدرك خطورة ما قال:

- الجد ماشي كذاب، ولكنكم قولتوه الكذب، واش كنتوا معاه، كيف لي متيتصدقش، متيتقال ليه على البارح، يصدق خرفاتكم عن الماضي البعيد.

فجذبته ووضعت جبهتي في أنفه، فسالَ الدم، ثم عضضته في عنقه وخنقته، وسمعت الجماعة ورائي تشجّعني، كدت أن أقتله ولكني، الآن، بيني وبينك أرى أن عمر كان على شيء من الحق فيما قاله. لقد هلكت الشمس الأرض، ولم تعد تعطينا إلا الأحزان، وأصبحنا نسمع نداء واحداً في قلوبنا، أن نهجر هذه الأرض التي لم تعد قادرة على أن تعطينا شيئاً. وعلى رأي قائد المزاليط: كل أرض تعطيك الخبز هي أرضك، كيف سيظل الإنسان متعلّقاً بحبّات تراب ناشفة؟

المهم سأكمل الحكاية وإن كنت افتقدت الحماس القديم والحرارة التي كنت أرويها بها، وربما سيأتي يوم تموت فيه هي أيضاً ولا يذكرها أحد أبداً:

«حرث أبناء الجد الأرض بلا انقطاع، تعبوا واستراحوا إلا مصغون ظلّ يحرث ليلاً ونهاراً حتى وجدوه بعد سبعة وعشرين يوماً ملقى بلا وعي. لقد أهلك خمس عشرة دابة، ومعها البغلة التي كانت تنقل له الماء، وترك على حافة الموت المرأة التي كانت تخبز له بلا توقف. لم يمت الجد بعد شهر كما قال، ظلَّ فوق رأس مصغون يمسح العرق عن جبينه ويمسك يديه حين تهزّه الحمى الشديدة، وتعذّبه القساوة التي استولت عليه، فلم يرحمه وهو يراه يسوق المحراث إلى حتفه...».

أدركه النوم، تثاءب، وسكت عن الكلام، وتحفّز للنهوض، قلت: «ليس قبل أن تكمل لي الحكاية»، فردّ بأنه سيكملها غداً، وخرج، وفي الغد انتظرته، حيّاني من بعيد ولم يأتِ في الليل كما اعتاد، وحين لقيته في الصباح بادرته:

- كمل لي الحكاية.

ابتسم وقال:

- ما نسيتيش.

- لا.. بغيت نعرف كيف مات مصغون بعيداً عن الأرض.

- الحكايات تروى في الليل ماشي في ضو النهار.

ابتسمت وقلت:

- ضو النهار تيفضح كذوبها.

- الكذوب فيه وفيه.

- ما عندنا غراض، المهم غدي نكمل ليك الحكاية: امشى مصغون للحج أهو في الطريق، امشى إيشوف الصحراء، للي كانوا فيها، أومات تماك.

أردف لما رأى علامات الخيبة في وجهي:

- قلت ليك الحكايات تروى في الليل ماشي في النهار.

من أوراق مصطفى

3 يناير . . .

وقع أمر غريب، بعد أن وضعت أمتعتي، واستلقيت أستعيد الأيام التي قضيتها ببني ملال، وأستعيد «مريم»، سمعت صوتاً قرب باب البيت، خرجت فرأيت الرجل يلاحقني ببسمته يجري باتجاه الوادي، ورأيت أشياء مكوّمة قرب البئر، بضعة ألحفة رثّة، كلها تراب، وأدوات طبخ متفحّمة. اضطربت، أتخبّئ لي هذه الأرض كلّما وطأتها مفاجأة؟ جريت نحو جابر ولمّا رأى كومة الأشياء، قال لي إنه سمع أن معتصم المعلم الذي كان قبلي هنا، ترك أمتعته كلّها لمبارك عندما رحل، ولم يعرف أحد ما فعله بها، ورجّحوا أن يكون رماها في الوادي، لعلّها هي إذاً. ولكن لماذا وضعها أمام البيت وهرب؟ أيمكن أن يلتبس عليه الأمر إلى درجة أن يعتقد أنني أنا سي معتصم؟ لم يكن جابر من رأيي، فمبارك، في نظره، يعرف سي معتصم جيداً ولم يفارقه لمدة ثلاثة سنوات. أكلمك في يوم من الأيام؟ يبتسم في وجهك ويلاحقك بنظراته. إن مبارك ليس مخبولاً بالشكل الذي يمكنك

أن تتصوره، لم نعرف ما نفعله بالأمتعة فاقترح جابر أن يعيدها له، قال إنه غمغم في وجهه بغضب ولم يرد أن يأخذها، وأشار إليه أن يعيدها وهرب، وضعها له في مغارة سيدي مول الواد، وهو حتماً سيعيدها إذا أخذناها له مرة أخرى.

قرّرت أن أحتفظ بها، حتى يأتي المدير أو الحارس فيتدبّر أمرها، وضعتها في ركن البيت، وفي المساء رأيت أسراباً من الحشرات تخرج من اللحافات، فأخرجتها لأنظفها، سقطت لفافة كانت وسطها. أعدت اللحافات إلى مكانها ووضعت اللفافة بجانب رأسي، وتحسّستها مرات عديدة، فتبيّن لي أن بها أوراقاً أو كتاباً، ولم أقاوم رغبة عارمة في أن أتصفّحها لأعرف ما بداخلها.

أصبحت سيارة «رونو» البيضاء بجانب دار الفقيه، فتنة للناظرين. أحاط بها الصغار متحككين بها، ومتطلعين من وراء الزجاج إلى داخلها. خرجت رحمة التي أرادت أن تذبح ديكاً كبيراً وهشّتهم، وتوقف كل من سار وتأمّلها، فباستثناء سيارة أولاد الحاج عبدون وسيارة الدرك المعروفة، نادرة جداً هي السيارات التي وصلت الدوار في تاريخه الطويل. وخرجت مرة أخرى لتستسقي من البئر فشاع الخبر، جاء عمر أخوها من الطليان، وهو الآن نائم من تعب السفر الطويل. كم هي السنوات التي غاب فيها عن الدوار؟ لا يستطيع أحد باستثناء الفقيه ورحمة أن يعطيك عددها، ولا يذكر الناس منه إلا شعراً طويلاً ومتناثراً ووجهاً قلقاً ألف العراك، وقامة زادت في طولها نحافته التي ورثها عن أمه. ويذكرون خناقاته المتكرّرة مع أهله، ورغبته المتكررة التي يفصح عنها في الهجرة إلى حيث لا يعلم طريقه أحد. وقد سار إلى الدار البيضاء مع صديق له، وظلَّ هناك سنة كاملة عاد بعدها ليعدّ أوراقاً كثيرة، ظلَّ سنة لأخرى يجمعها وينتظر أوراقاً قال إنها ستأتيه من الخارج. واختفى ذات

ليلة صيفية دون أن يودّع أحداً، وبعد شهور عديدة جاءت رسالة من الطليان، لتنقطع أخباره بعد ذلك.

جاء الفقيه عند الحسين بوجه مرح انقشعت عنه كل الهموم التي علقت بوجهه في الأيام الأخيرة، واشترى حاجات كثيرة، ومازح على غير عادته الحسين وقائد المزاليط الذي كان هناك، باركا له عودة عمر فشكرهما. وقال له قائد المزاليط إنه إذا رأى عمر سوف لن يعرفه لطول مدة غيابه وأمن الفقيه على كلامه، وقال إنه أصبح مكتنزاً وأبيض البشرة ويلبس ثياب الناس الكبار...

تركهم الفقيه ليخبر الحسين قائد المزاليط بأنه يعدّ العدّة لنقل تجارته إلى بني ملال. حزنَ القائد وبلع ريقه بصعوبة، يعاوده الشجن أبداً كلما أخبره أحد أنه سيرحل، وعندما اكتمل الجمع وبدأ اللعب صاح بهم: «لمن تخليونا أحنا الكبار للي ما قدراش رجلينا تفوت بنا الواد؟»، لم يفهم مغزى كلامه أحد وواصلوا اللعب.

لم تمل الشمس كثيراً لتتوسّط السماء حتى امتلأت الدار بالمهنئين. جاءوا من دواوير بعيدة، دهشت رحمة وغاظها أنها لم تطّلع بعد على ما في الحقائب الكثيرة، وقريباتها لن يتركن ركناً في الدار إلا حمن حوله، ولعنت خرجة البئر.

أشار الفقيه لها بأن عمر صحا من النوم فجرَت حاملة الطست، غسل وجهه، ودخل المهنئون ليوسعوه قُبلاً خرج منها وجهه محمرّاً من الخجل، وهو يكرّر الكلام نفسه: «الله إيسلمك»، فغمز الفقيه لأخته فأخرجت النساء بأي كلام، ووضع

الغداء، وفي المساء خرج، توقف عند كل شيء، وأجال عينيه وركب السيارة وسار للخلاء، وعاد وجلس قرب الدار مع الفقيه وهو ساهٍ، كأنه يسعى لاستعادة ذكريات تلاشت إلى الأبد، والفقيه يعمل على ملء المسافة الطويلة التي فصلت عمر عن الدوار بحكي متعثّر، يتحدث عن أشياء لا حصر لها. تهلّل وجه عمر لرؤية الرخ، رفيق الصبا، فقام وعانقه وعانق قائد المزاليط والسرجان، وأدخلهم الفقيه إلى الدار. أخرج عمر زجاجة ورشّهم بالعطر، وشربوا شاياً صنعه الفقيه أمامهم من علبة حديدية خضراء. ثم أخرج سجائر فاخرة قدّمها لهم، أخذ الرخ سيجارة، ولم يستطع قائد المزاليط أن يمسك نفسه، فأخذ هو أيضاً واحدة دسّها في جيبه على الرغم من أنه لا يدخّن. وتحدّثوا طويلاً عمّن مات من الدوار ومن بقي ومن رحل إلى حيث لا يعرفون. وانتظر الأربعة كلاماً طويلاً من عمر عن هناك، لكنه اقتضبه بكلمات غامضة، دون أن يشبع نهمهم المتوقّد: الغرب جنة، والثلث الناجي عند الله، هو اللي هناك. وحين اختلى بالفقيه قال له بأسى، إنه يصير كالكلب من أجل لقمة العيش، ولا يمكن الإنسان أن يجمع الفلوس، إلا إذا تخلّى عن إنسانيته وأصبح بهيمة، والشرطة فوق ذلك تطاردهم في كل مكان، فهم يريدون أن يخرجونا بأية وسيلة، والسلام. كانت رحمة تسترق السمع من وراء الباب ولم تستطع أن تتغلّب على شكّها في صدق الكلام الذي قاله عمر للفقيه، فهو من دون شكّ -في خاطرها الذي سكنه الوسواس منذ أن طلقها زوجها- يضع العصا قبل الغنم، وما قاله كله موجّه ضدّ طمع الفقيه. سمعته

وبعد صمت طويل يسأل الفقيه عن زوجته، ولم يكن شقّ الباب، ولا النور الباهت الذي يرسله القنديل من الركن القصي كافيَين لرؤية الحرج الذي استولى على الفقيه وعطل لسانه في فمه، فأشار بيده فقط إلى الحُجرة الأخرى.

الـــدوار

-2-

كان الدوار عامراً، يشقى الناس ويتعبون، ولكنهم متجمّعون، الأخ بجوار أخيه، والأب بجوار ابنه.. كانت الحياة سهلة، يتزوّج الناس بيسر وبلا تفكير، ويلدون بلا تقدير للحاجات. يجتمع الناس في الليل يتسامرون، والأطفال بعشرات اللعب، لكل فصل لعبته، يتطايرون هنا وهناك. كان بكل خيمة فرس، وفي كل عيد ولثلاثة أيام، وفي كل فرح عام تعقد السُّرَب وتجري الخيل، وتفجّر الطلقات في اللحظة ذاتها، والطلقة النشاز تنزل الجماعة في العشاء عند صاحبها. يجوع الرجل ولا يجوع الفرس أبداً.

أين الخيل والسرب؟ أين التبوريدة، وقفاطين الملف اللمّاعة، وسروج فاس المذهّبة؟ لم تبقَ إلا الحمير تتسابق بالقلل إلى الوادي بعد أن أصبح ماء الآبار مرّاً لا يطاق.

وهذا الخلاء المقفر لا يمكن لمن مشى فيه بين شجيرات السدرة والعنصل والزقوم ورأى النسور تحوم في السماء فتهوي

وتصعد بمغنم، لا يمكن لمن مشى ورمى رجليه في الحشائش بوجل خشية السم، ولمن قضى الليالي هنا تائهاً عن الدوار تذهله المسارب أن يصدق بأنه يضع رجليه في المكان نفسه.

كان الدوار عامراً بحقّ، ولم يبقَ إلا الخرب والدور المهجورة والمطامير الفارغة والآبار المردومة، سار الناس في كل اتجاه، وتلقّفهم السماسرة والمقاولون، وحتى إذا عادوا فليأخذوا أهلهم لكي لا يعودوا مرة أخرى، حتى موتاهم نسوهم، ونسوا الجد.

محجوبـة

كان يبحث في عينَي طوال جلستنا وفي طريق العودة، عن شيء ما لم أفهمه إلا لمّا اعتصر يدي في يديه للمرة الأخيرة، وكرّرها مرتين وببطء شديد: «بسلامة»، كان يريدني رغم أنه عزم على السفر، ولا شيء سيردّه، أن أطلب منه البقاء. بحث في وجهي عمّا يدل على الحزن ولم أستسلم لعينَيه، كانت الدموع تتجمع فيهما ويداه ترتعدان، قلت سيحضنني الآن أمام الناس، ولن أمانع لأني لن أراه لمدة طويلة ولكنه لم يفعل.

لمّا طلعت الشمس كنت أنتظر مروره فوق السطح لأودّعه مرة أخرى، ولكنه لم يمر، خرج في منتصف الليل.

آه يا ولد ابلادي
والله ايما انخونك غير لا خنتيني
آه يا ولد ابلادي
والله ايما ندوزك غير إلا دزتني
واعطيتي فاتحة على قبري ونسيتني

أعرف أن جابر يحبني وأنا أحبه، ربما الشيء الوحيد الذي

أنا متأكدة منه في هذه الدنيا المتقلبة هو حبّ جابر، ولكنني أحس دائماً كلّما فكرت فيه، أو حدقت في وجهه، بأننا نمشي في طريقَين مختلفَين، وأن الزواج لن يكون، أقاوم هذا الإحساس، أقول لنفسي: لماذا؟ ولا أجد جواباً. كانت المرحومة تخوّفنا من الغد، وتقول إن من يأمن للحياة كمن يأمن للحيّة، وتحكي لنا كيف غدرت بها الدنيا وتبكي. عشنا وسط الحزن والدموع والخوف. كانت أمي تختنق بالبكاء دوماً وهي تردّد: «ما يعذبني ويقف كالشوكة في حلقي هو أني تركتكم كالقبر المنسي بلا أعمام ولا عمات ولا خالات ولا أخوال، حتى الولد الذكر حرمني الله منه». تتجاهل خالتي رقية وخالتي عائشة، متعمّدة، فمنذ ذهبَت خالتي رقية إلى الدار البيضاء، واشتغل زوجها في المرسى، واشترت داراً وثلاجة وتلفزيوناً، لم تعد تفتكر أمي ولو برسالة. أما خالتي عائشة فزوجها يشتغل في الفوسفات بخريبگة، جاءت عندنا هي وأولادها في الصيف الذي ستمرض فيه أمي، كادت أمي أن تطير من الفرحة، وأخرجت النقود التي تعقد عليها مئة عقدة، وكلّما وضعت الأكل، الذي لا نأكل مثله، تقول لها: اعذري الحال يا أختي، تعرفين البئر وغطاه. ولكن خالتي تنظر بترفّع إلى الطعام، وتعرض عن الطبق بعد لقمات قليلة، تتبرّم وتتأفّف بلا انقطاع، وتقول إن العيش مستحيل هنا، كأنها ولدت في قاع فاس. تغمز لأولادها بعين كالشقّ، لكي لا يفرطوا في الأكل، وأمي تعاملها كالماء العزيز. تغيّرَ كل شيء في أمي، إلّا قلبها ظلَّ كبيراً وحنوناً ومسامحاً، وأخذت خالتي تخرج لحانوت الحسين، وتشتري لأولادها علب

السردين والجبن والمادلين، ولم تستطع أمي أن تكتم غيظها، وقالت لها، وهي داخلة بتلك الحاجات، إنها بصراحة تفضحها وتجعلها «معيارة للناس»، فجمعت خالتي حاجاتها وذهبت بحجّة أنها تخاف من العقارب على أولادها.

لم تتوقف أمي عن حب خالتيّ والشوق لرؤيتهما، كانت تذكرهما في أغانيها الحزينة، ورأيتها مراراً وهي تمسك بإحدى الحمامات البيضاء: أستحلفك بالله يا للا الشريفة أن توصلي سلامي وشوقي لأختي عائشة وأختي رقية، وتطلقها في الريح، ولكنها في مرات أخرى.. وهنا أريد أن أقول إن أمي فيما يخص خالتي كانت تتناقض باستمرار، تنكرهما وتقول إنها وحيدة في هذه الدنيا، وتذكرهما بحنو وحرقة، فهما كل ما ترك القبر لها، والأخوة في الدنيا، أمّا في الآخرة فكل واحد لنفسه.

لقد عذّبني حبّ جابر، ومنعني من النوم ليالٍ طويلة، وزهدني في الأكل، ولا أعرف كيف جاريته، وبدأت أخرج معه، وأبوح له بما في قلبي، لا يجب على من هي في وضعيتي، بالظروف القاسية التي عاشتها وما زالت تعيشها، أن تفكّر في هذه الأشياء. كان يلاحقني بعينَيه، وأجده أينما سرت، وحين يكلّمني يحمرّ من الخجل، وتخرج كلماته على شكل غمغمة غير مفهومة. كنت أحس بأنه يريد أن يقول في كل مرة شيئاً ما، ولم أعرف ما هو. اعتدت نظرات جابر، واعتدت أن أراه. وحينما كان يغيب، أحس بأن شيئاً ينقضي، فأبقى حزينة قلقة. أصبحت لحظات رؤيته هي اللحظات السعيدة الوحيدة في حياتي. منحته ذات مساء فرص الاختلاء بي، ولكني نغّصتها عليه وأنا أخادع

نفسي، فتركته يكلّمني دون أن أردّ عليه ولو بإشارة من رأسي، بل إني طلبت منه مراراً أن يبتعد عني، ومررت أمامه دون أن أرد سلامه ولم ييأس.

أذكر يوم ماتت أمي جاء كل من في الدوار وعزاني أنا وأختيّ إلا هو. اقترب منهما ونحن نعود من المقبرة وعزّاهما، ولم يقل ولا كلمة واحدة. التقت عيني بعينَيه، كانتا محمرّتين من البكاء. كان حزيناً ومجهداً وسار، وفي الليل سمعت طرقاً بالباب ولمّا فتحته وجدته هو، ألقى برأسه في حضني وبكى. بكيت معه وأنا أمسح الدموع عن عينَيه، وأخلّل أصابعي في شعره. في تلك الليلة أحسست أن جابر قدري في هذه الدنيا، وحين اعترضني بعد أيام، أفرغت قلبي أمامه بلا تردد. وأخذنا نخرج إلى جانب الوادي، نتكئ على جذع شجر الصفصاف ونتكلم. عرض عليّ الزواج، كدت أطير من الفرح، لكني وأنا أضع رأسي فوق الوسادة فكّرت كثيراً، وربما لأول مرة في حياتي، واستحضرت عذاب أمي، وقلت لنفسي: «عليّ أن أفعل شيئاً لكي لا أعاود السير في الطريق الوعر نفسه الذي قتل أمي. لا أريد أن أتعذب ويتعذّب جابر معي. إن كان عليّ فأنا قادرة برأسي اليوم وغداً، ولكن الأيام والأولاد والحاجات الكثيرة.. وليس لي ولا لجابر شيئاً صلباً نستند عليه. نعم لجابر أرض كبيرة، ولكنها بلا ماء، أرض بور، والبور كما يقول الناس بو القبور. حتى هو لا يفكر فيها، يتصرف كأنها غير موجودة. قال لي مراراً إنه يطول الطريق لكي لا يراها، كيف سنبني بيتاً إذاً؟ شغل جابر المتقطع لا يكفي، لو كان يشتغل بصورة دائمة لما

تردّدت، ولكن أصحاب العمل يفضّلون الصبايا رخيصات الأجر، ويتركون الرجال أصحاب اللحي تأكلهم الشمس والبطالة».

في الغد التقيت جابر، ما أن رآني حتى قرأ أعماقي، لم يترك لي الفرصة لأكمل حديثي كله. صاح في وجهي بغضب: «ما المطلوب مني؟»، قلت له: «ابدأ، اشتغل بأي شيء، ولكن يكون دائماً، لن أتزوج غيرك يا جابر، أريد فقط أن أحس بالأمان والاستقرار»، ولم يرد عليّ بكلمة، تركني وسار.

أنا التي دفعت جابر للهجرة إلى المدينة، وحين عاد رأيت الخيبة في عينَيه، لم يكن يتوقع أن يراني تلك الليلة (لو عرض عليّ الزواج لقبلت يومها)، رآني وأخّر رجلاً وأرخى عينَيه، تردّد قبل أن يمدّ يده ليسلّم عليّ، قلت له: «هل سأبقى واقفة هكذا فوق العتبة»، فاعتذر وفسح لي الطريق لأدخل. وبعد أن تعشيت معهم، تحدّثنا طويلاً في أشياء لا علاقة لها برحلة جابر، ورافقني بطلب من أمه لكي لا يعترضني أحد السكارى (جاء جابر ليلة عرس الفقيه)، وعوض أن نسير إلى دارنا، ودون أن يطلب مني ذلك، درنا من وراء المدرسة وانحدرنا جهة الوادي، نقصد شجرة الصفصاف حتى فاجأنا المطر..

بعد أن عاد جابر كنت أحس به لم يبقَ له خيار آخر غير الأرض، والدوار لا يمنحنا خيارات أخرى، إمّا ترحل وإمّا تواجه الأرض وأنت تضع يدك على قلبك وتتوقع المصائب. كانت أمي تقول: «الرجل الحقيقي بحال الفاس فين ما طاح يحفر»، وماتت بغصّة حرمانها من أولاد ذكور، يستعيدون

الأرض التي أخذت غصباً. حين كنت أخرج للعمل، وكانت لا تبرح الفراش، تقول لي: «خدمي فين بغيتي إلا الأرض للي سرقوها أولاد الحرام». ولما رأيت جابر يحرث، وأراه الآن وهو يحضن الأرض ولا يفارقها، يقتلع النباتات الزائدة، ويهشّ الطيور والبهائم السائبة وأرفع عينَي للسماء، أوقن أن هناك «الرجلة» كما قالت أمي، ولكن هناك أيضاً السماء، وهي أقوى، ومشكلتنا هي أننا نبني حياتنا على شيء ليس بيدنا، نبنيها على أمل بعيد، ونسندها بأماني «تمكن تجي ويمكن ما تجيش».

«أي معنى نعطيه لكلمة أمل؟
وأي معنى نعطيه لكلمة واجب؟»
كانط

يمرُّ النهار وسط وهج الشمس اللاهب، أرى كل شيء رمادياً وكئيباً، وفي الليل تنعدم الرجل بعد صلاة العشاء، ولا يبقى إلا نباح الكلاب، يقترب حتى أهمُّ بفتح الباب لإبعادهم، ويبتعد حتى أشعر بأنه يأتي من أقصى العالم. أتكوّم في الركن وأبكي، ليست دموع عجز وخوف وغربة، بل دموع تغسلني من الأوهام التي ملأت رأسي وقلبي. ولّت الأحلام إلى غير رجعة، ولم أنجح في تنظيم حياة خاصة هنا، تقبل الحقيقة اليومية وتنخرط فيها. لم أجرؤ حتى الآن على الدخول إلى وسط الدوار، باستثناء مبارك (أعادته صدفة أحسده عليها إلى البراءة الأولى)، لا أريد معرفة أي إنسان هنا، ينتابني شعور إن فعلت معناه أني قبلت هذه الوضعية، التي أرفضها. كلّما تكوّمت على نفسي، أنقل عينَي بين أدوات الطبخ، والشمعة، والكُتُب المبعثرة، والطائر الصغير المنزوي في ركن القفص، أهذه هي الوظيفة، أهذا هو مصير كدح سنين بجوعها وسهرها؟ كم وفينا المعلّم من تنكيل. لا أستطيع أن أكون كـ«ريكس» في الأيام

الأولى، لم أكن أعرف كيف أنام، فكلما اقترب نباح الكلاب، ينبح هو أيضاً، ويضرب الباب يريد الخروج إليهم، فاضطررت أن أربطه بجانب البئر، وبدأت أنسى ذلك، خصوصاً أني أكون في الغالب سكران. ساءت العلاقة بيني وبينه باستمرار، يراني ولا أعني له شيئاً، فيرخي عينَيه ويستمرّ في النوم، آخذه إلى جانب الوادي فيتركني ويعود...

حين أتأمّل المصير الذي آل إليه «ريكس»، أدرك أني لست إلا ماضياً، لحظات، ومواقف، وإحساسات ووقائع تجهد نفسها لتجدَ لها مكاناً في الحاضر. أنا ذاكرة، وهذه الذاكرة تجترّ نفسها كالحمل الثقيل. جاء معي ريكس يحمل أولاً وأخيراً غريزته التي لا زمن لها، واندمج في الواقع الجديد، صار كلباً آخر يتمرّغ في التراب وينبح حبّاً في النباح، ويأكل الجيف، وجئت أحمل بداخلي زمناً ثقيلاً، يجعلني أعيش مع الدوار كضرّتين حكم عليهما بالعيش في مجابهة دائمة.

معتصم 10 ف

عـمـر

ظلَّ عمر بضعة أيام، يجلس ويمشي ويأكل وكأنه نائم، وبعد ذلك ذابت الوحشة في صدره شيئاً فشيئاً، وأخذ هو أيضاً لا يخرج من حانوت الحسين، ينشر عطره القوي وثيابه الزاهية ويحلو له كثيراً أن يحتكم له اللاعبون لفضّ خصوماتهم، فينهي الخصومة دائماً بالطريقة نفسها، يسلُّ ورقة نقدية خضراء من جيبه ويؤدّي عن الجميع. وأصبح الفقيه من حين إلى حين يعرّج على الحانوت، ولا يعجبه سخاء عمر، لكنه يكظم غيضه، ويكظمه أيضاً حين لا يفارق الرخ. يأتي به لتناول طعام الغداء والعشاء، حتى أن الفقيه لم يعد يعرف كيف يكلّم عمر لوحده، بل إنه، وبعد أيام أخرى لم يعرف كيف يراه، إذ رفض عمر بلا نقاش أن يستمر على النوم في الدار، فحُجرة تملأها أخته وأولادها، ومن المفروض أن يبقى الفقيه وزوجته في الحُجرة الأخرى. أحرج الفقيه كثيراً، ووجد الحُجّة مقنعة، لو كانت الأمور بينه وبين مباركة تسير على ما يرام. ولكن ماذا سيقول الناس، وأين

سينام؟ يردّ عمر بحسم: «ليقولوا ما شاءوا» وأخرج الفقيه وبيّن له كيف أنه بالإمكان إنزال المقاعد الأمامية للسيارة حتى تستوي بالمقاعد الخلفية، ويصبح هناك سرير معتبَر، وسيركن السيارة قرب الباب، لكي لا يراه أحد حين يدخل في الليل إليها ويخرج في الصباح الباكر. ولم يدم الاتفاق غير ليلة واحدة، وكأن عمر كان يريد فقط أن يتحرّر من الجلسات الثقيلة مع الفقيه، الجلسات المليئة بالمواعظ القديمة والأسئلة التي لا معنى لها. وصار نادراً ما يجلس لطعام الغداء والعشاء معه، ويركن السيارة حيثما اتفق وينام، حتى تشتعل الشمس، والأطفال يتفرّجون من وراء زجاج النافذة على فمه المفتوح، الذي يعلو منه الشخير. وساء الفقيه كثيراً أن يشم فيه رائحة الكيف، وأيقن أن غيابه الطويل لم يغيّر فيه شيئاً.

أخذ يعترض نساء الدوار بكلام بذيء، وملأ سيارته بالبغايا يجمعهم من كل الدواوير ويقيم ولائم وأعراساً في العراء. كثر مريدوه، حتى أن الرخ مثلاً تفرّغ له تماماً، وشهد كل نزواته، واستعظم الشره الجنسي الذي أظهره، كأنه لم يقرب النساء أبداً في حياته. فطنَ الفقيه لكلّ ذلك، وتحيّن الفرصة ليكلِّم عمر، وكلما همّ بذلك احتبس الكلام في حنجرته، وانتهى إلى أن مقام عمر قصير، فليدعه يستمتع بكل ما حُرم منه في صقيع الغرب.

وحدث أن حرنت سيارة عمر في المسرب المليء بالحفر، وكان سكران، فخرجت به إلى الحافة وارتطمت بشجيرات الصبّار، وجشّ رأسه، وسالت منه دماء كثيرة، لزم على إثرها الفراش، وكانت فرصة للفقيه ليلقي مواعظه الثقيلة وأسئلته التي

لا معنى لها على المريض، وهو يضمن بأنه يسمعه إلى الآخر. لم يفسّر ما حدث له بالخمر الذي لم يرد أن يذكره في معرض حديثه، بل بالخواء الروحي وضعف الوازع الديني، والشيطان الذي عشعش في نفسه. لم يطمع الفقيه في أن يقوم لتوّه ويصلّي، لذا أجبره فقط أن يحمل ذبيحة وكسوة إلى ضريح الجدّ الذي أخطأ كثيراً بالإعراض عن زيارته لمّا عاد سالماً، وأخذ منه وعداً وقسماً بالجدّ على أن يتجنّب الرخ ورفاق السوء الآخرين.

وكانت فرصة لعمر لكي يتعرّف إلى مباركة زوجة الفقيه، التي سعدت كثيراً بحضوره، وبخروجها على يديه من عزلتها القاتلة. ودارت بينهما أحاديث طويلة في حضور الفقيه وأخته أو في غيابهما، حين يذهب الفقيه للصلاة بالناس، وتشتغل رحمة بالطبيخ أو بحصي دجاجها. لم يكن عمر حتماً قد أحس بالعذاب الذي تسبّبه تلك الأحاديث للفقيه، وبالانفعالات الشديدة التي تتناوب في صدر رحمة، وتجعلها تضغط يديها وتتمنى لو تنتفها من شعرها وتكنس به تراب باحة الدار. مرضت مباركة مرضاً خفيفاً وأصرّ أن يأخذها إلى بني ملال لترى الطبيب، واستعاد الفقيه بالله مرات عديدة، وصارع إصرار عمر بحجج لا تحصى، وأذعن في الأخير، لكنه لم يستطع أن يرافقهم، وتعلّل بصلاة الجمعة، التي لم يخطئها منذ أن بلغ سنّ التكليف، وهو في الحقيقة يخفي الرعب الذي تسبّبه له فكرة السير وسط زحام المدينة بجسده الثخين. لم يستطع الفقيه، كلما أتيحت له فرصة الذهاب إلى المدينة، أن يتغلّب على صورة مِلحَاحة وآسرة، تملأ خياله: غيران صغيرة ولكن لا نهاية لها،

ونمل كثير يخرج ويسير في كل اتجاه، وضجيج يصك الآذان، قال عمر وكأنه حدس ما يدور في صدر الفقيه: «بني ملال مدينة صغيرة ماشي بحال الدار البيضاء»، ولم يكترث الفقيه بما قاله، وألقى الكُرة في يدَي رحمة، التي رفضت أن ترافقهم رفضاً باتاً، وتعللت بشؤون الدار، وهي لا تستطيع أن تفكر، التفكير فقط، في ترك دجاجها عرضة لأولاد الحرام، وانتهى السجال بأن يرافقهم ابنها.

لم يكن الطفل يدرك طبيعة مهمته، لذا لم يستطع أن يقول وطوال التحقيقات العديدة التي أخضعته أمه لها شيئاً ذا بال، ولكنه وبعد أيام قال إن عمر أخذهم إلى عين أسردون وأرسله ليلعب مع الأطفال، بينما جلس هو ومباركة ودلّيا رجليهما في الماء البارد. اهتزَّ قلب رحمة ولكزته وهي تقول له ألّا يكرر كلامه أمام الفقيه.

* * *

يقبل، تتهاوى الأيام أمامه، نحس به من بعيد، ونخافه، وننتظر. قد يجدها نواراً ويصيّرها غباراً، وقد يجدها غباراً ويصيّرها نواراً. إنه مارس، فحل شهور السنة وسيدها، إذا حضر فكأنها لم تغب، لا خير إلّا معه ولا أحزان إلّا معه، إذا سقط المطر فيه فكأنه سقط السنة كلها وإذا غاب فلنا الله والدموع والأيام القاسية.

يقبل، يكون الزرع قد ارتفع عن الأرض، ودخل مرحلة الولادة الصعبة. تتشكل السنبلة في الأحشاء المظلمة للقصبة،

وتنتظر لترى النور، لترسل خصلاتها في وجه الريح، أو لتختنق، وتتقصف وتموت في الأعماق عمياء، وقد قيّد لها ألّا ترى النور أبداً.

تتعبنا أيام مارس الطويلة. نسحب أملنا وانتظارنا من مكان إلى آخر، ونرقب السماء من زوايا مختلفة، وترتدُّ أبصارنا خسيئة كسيرة. السقف الأزرق الرائق نفسه يضغطنا بلا رحمة إلى الأرض الحامية المتشقّقة.

لمَ لا تتسع تلك الشقوق وتبتلعنا فترتوي الأرض بدمائنا؟

مارس أقبل، والأفق الأزرق أقبل، فافتحوا تلك الخرق التي في صدوركم وانتظروا.

* * *

. . . تراهم يبتسمون في وجوه بعضهم، ويتبادلون التحايا بلا انقطاع ولكن بالقلوب شيئاً آخر. إنك لن ترى الأنياب والأظافر الحادة، والعيون الحمراء النهمة التي نراها في بعضنا، لن ترى حبّ النفس الذي نما في قلوبنا وكبر حتى أننا نحسد بعضنا على اللقمة الحارة وحدها.

إن الجفاف لا يقتل الأرض ويشقّقها فحسب، بل يشقّق قلوبنا ويحيلها قطعاً قاسية لا تعرف الحب ولا الرحمة. قد تلتئم الأرض وتجود من جديد، لكن كيف ستنسى عيشة أنها حملت رضيعها الذي نفر ثديها في ليلة كالحة مغبرة، وطافت به على الدور تريد قليلاً من الحليب، وعادت إلى بيتها؟ كيف ستنسى صراخ الرضيع الذي يعذبه الجوع بين يديها؟ مات الطفل ووقفوا

في الصباح بلحيهم دون أن يستحوا وقرأوا عليه الفاتحة وردموه في التراب.

إن مرورة ماء الآبار لا تعادل أبداً مرورة القلوب، وظلام الليل لن يكون أقسى من سوادها. كيف سينسى بن عزوز أن أولاده لم يذوقوا الطعام يومين متتاليين؟ وأنه ترك أنفته وفزع إلى أخيه الذي فتح لتوّه مطمورة من الشعير، وأخذ يبيع الناس، لم يطق حتى النظر في وجهه، قال له: «اعتبره سلفة أو لأشتغل عندك يومين أو شهراً، ولا تتركهم يموتون من الجوع». لم ينظر في وجهه، أمر أولاده أن يسدّوا المطمورة من جديد، ودخل داره وهو يلعن طمع أبناء آدم. لم يجد بن عزوز عند كل من طاف بهم إلّا شعيراً حائلاً ومتعفّناً، كاد أن يقتل أبناءه من شدّة الإسهال. كيف صارت القلوب هكذا؟ إني أفكر باستمرار ولا أجد جواباً مقنعاً.

أقول لنفسي لعلّه الجفاف، والجوع يساوي الإنسان بالكلب، ولكن هذه الأرض عرفت في تاريخها مواسم الخير مثلما عرفت مواسم صعبة وليس هذا أول جفاف تعرفه، ولكن الناس لم يكونوا هكذا، أن يكبروا قطرة حليب في فم رضيع يموت، لا، لم يكونوا أبداً هكذا.

وأعود وأقول لنفسي لعلّها الطريقة التي أصبحنا نعيش بها: قُم لوحدك وأقعد لوحدك، وكل واحد يدخل سوق راسو، لم تعد هناك أرض جموع تجمعنا، وآبار نلتفّ حولها، أصبح الواحد منا يحزن لوحده ويفرح لوحده، ويسير لوحده إلى القرض الفلاحي، وحين يأتي الدرك ليأخذوه حتى يدفع لا يكترث به

أحد، يسجن أو يهاجر ويبيع الأرض، يفعل كل ذلك لوحده.. محجوبة؟

إننا في الدوار لا نعرف كيف نتكلّم عن النساء، إن الكلام البذيء يسبقنا إلى أفواهنا فنروي مغامرات لا أساس لها من الصحّة. لن أكون مثلهم، أنا لم أعرف نساء كثيرات، لم أعرف إلّا واحدة، ولن أعرف غيرها، ولن أقول الكثير عنها. أعرف أنك حكيت لي قصتك مع مريم، لأحكي لك أنا أيضاً عن محجوبة، ربما سأخذلك، كان بيني وبينها أشياء كثيرة إلّا الكلام. حين ترانا جالسين قرب شجرة الصفصاف، نكون في الغالب صامتَين. لقد قلت لها حبي بكل شيء، بعيني، بيدَي الراعشتَين بالدم الذي يصعد إلى وجهي، ولكن الكلمة الصغيرة استعصت عليّ. ستقول إنه الخجل. إنه شيء أقوى وأكبر، الخجل يذوب دائماً بعد اللقاء الأول.

في وقت من الأوقات، كنت أتمنى أن أجد من يستمع إليّ مثلك. الإنسان يكتم الحقد في نفسه ويخفيه، لكنه لا يستطيع كتمان الحب، الحب فضّاح. تريد في بعض الأحيان أن تعترض الناس وتقول لهم إني أحب فلانة. مرة انتحيت بحمادي جانباً (رحل هو أيضاً فيمن رحل)، كنت أريد أن أبوح له، أن أحكي له عن محجوبة، استمع إليّ حتى الآخر، وابتسم وقال لي: «الحل هو أن تعترض طريقها في الغروب وتأخذها بالقوة إلى جانب الوادي، وإذا صرخت أشبعها ضرباً وركلاً، كلهنّ يمتنعن في الأول ولكن صفعة واحدة تليّنهنّ»، من يومها قررت ألّا أكلّم أحداً في ذلك، وتعوّدت أن أحتفظ لنفسي بما أحس به.

أحببت امرأتين في امرأة واحدة، لا تعجب، كنت أراها ولا أراها. أرى في وجهها المرأة التي قبّلتني بحرقة في الصّبا، واحتضنتني وأعطتني الحلوى، وصعدتني إلى السطح لألعب مع الحمام. أرى فيها المرأة التي فاجأتها مراراً وهي تبكي فمسحَت دموعها وابتسمَت لي، ولا تفارقني حتى تنتزعني أمي بقسوة من يديها. أراها كما كنت أرى تلك المرأة، أمها بعد ذلك، من بعيد، فتهزني رغبة لأن أجري وأرتمي في حضنها. تسير وأتمنى أن تقف وتفتح ذراعيها لي كما كانت تفعل وتدعوني لأرتمي فوق صدرها، أو على الأقل أن تنظر في وجهي برقّة وحنان، ولكنها تمضي ولا ترفع عينيها عن الأرض. كانت في أيامها الأخيرة تحتجب كثيراً وحين تخرج تسير وكأنها مصمِّمة على ألّا ترى أحداً.

لن يقول لك أحد في الدوار إنها تشبه أمها، ولكن أنا ولوحدي أرى أنها هي. لم يفارقني هذا الإحساس منذ ماتت. كنت من رأي الناس، ولكني حين وقفت لأعزّيها بعد أن عزّيت أختَيها لا أعرف ما وقع لعينَي، رأيتها فيها، الوقفة نفسها، الملامح نفسها، الحزن والكبرياء والعينَين المعذبتَين نفسهم، كيف أعزّيها فيها وأنا أراها؟ لم أقل لها ولا كلمة واحدة، هربت من أمامها، وفي الليل ضغطت على نفسي وبكيت على صدرها، عرفت يومها لمّا كنت ألاحقها، كانت حين تمر من أمامي، تخلّف بقلبي غصّة، وإحساساً بأن الزمن لا محالة سيكتب بيننا شيئاً ما، حاولت أن أكلّمها ولم أجد ما أقوله.

يوم ماتت أمها (ستسمع من الناس كلاماً كثيراً ومختلفاً

عنها) أحسست بضياع كبير، كانت رؤيتها فقط تمنحنا، تمنحني الأمان والقوة. كل الناس تغيّروا وأذعنوا وسوّتهم المصائب إلّا هي، ظلّت كما رأيناها يوم فتحنا أعيننا إلى أن وارياناها في التراب. . .

دعْ الكلام الآن، سأحفر البئر وأشتري الموتور وأتزوج محجوبة، يومها سأحكي لك حتى تملّ، ولكن الآن ادعِ الله معي أن يسقط المطر، إن الزمن يحوّل الكلام الجميل الذي قلناه في فورة حماسة وتفاؤل عاراً في وجوهنا، فنندم على اليوم الذي قلناه فيه، لن أنسى يوم عدت من المدينة.

المشيـئـة

تزرع المشيئة المصائب كما تزرع الأفراح، والمغتر هو الذي يرى الوجه المحزن في المصيبة، ولا يرى الوجوه الأخرى. قد تكون المصيبة تقويماً لاعوجاج ما، أو تكون علامة على أن أمراً ما لا يمكن أن يستمر على حاله، أو تكون فرصة للإنسان ليتأمّل ويعتبر، مهما كانت المصيبة، فليس شرّاً كل الشر. كان الفقيه يحدّث نفسه بهذا الكلام وهو يجتاز المسافة الفاصلة بين بيته والمسجد في الهزيع الأخير من الليل، بعد أن مرَّ بجانب سيارة عمر المركونة قرب الباب. كم تغيّر؟ وهذا الحياء، ما شاء الله، والعطاء بلا حساب. غاص في الظلام العميق، الظلام هبة من الله للمؤمن، تحتجب الدنيا الفانية عنه ويبقى في مواجهة ذاته بنقائصها، فيرى سوادها ولا يداريه كما يفعل بالنهار وسط الناس. كم حنق على عمر؟ وكان سيصل به الأمر إلى كراهيته، وها هو الآن وبعد الحادث صار عمر الذي أحبه الفقيه في قرارة نفسه من قديم. كان طائشاً، منفلتاً، جسوراً، ولكنه كان يسعى إلى تغيير مصير حياته بأي ثمن. امتلك عمر ما لم يمتلكه هو: القدرة على المجازفة، فباستثناء

زواجه من مباركة، ماذا يمكن أن يذكر الفقيه من سجلّ حياة الخيبة والعجز عن المبادرة التي عاشها؟ عزلة شبه دائمة عن الآخرين، ورغبات تولد في الصدر وتموت، وأمان يهرّبه أبداً كالبيضة لكي لا يلامسه شيء. توقّف، كان بلا محيط كأن الظلام تشرّب أعضاءه، لم تكن حياتك امتحاناً، بل هروباً دائماً، يجوع الناس ويعرون، وتموت الأرض، وتمضي بنفس القلب والخطوات، وكأنك تأكل الحجر، إنك أكثر موتاً من كل الذين واريتهم في التراب، وأكثر قساوة من الذين يهجرون وينسون أمهاتهم وأبناءهم هنا.

عاود السير، ساعتَين كاملتَين يقضيهما الفقيه في المسجد، يتوضّأ ويؤذّن ويصلّي، وبعد الصلاة يقرأ حزباً من القرآن، ينهيه غالباً، مع ميلاد النور في الأشياء، ويعود إلى البيت، لكنه وهو يؤدّي الصلاة اليوم لم يعرف قلبه الخشوع الجارف الذي عهده، قرأ بلا إحساس ولا تدبُّر، وقام ونزل إلى الأرض في فتور، ولم يجد في نفسه الرغبة ولا القدرة على قراءة الحزب، وأحس بانقباض داخلي، فخرج إلى الفضاء الواسع، وألقى رجليه بلا غاية في الظلام الذي دأب على مغالبة النهار في لحظات تراجعه الحتمي.

وكان سيدفع الباب لو لم يلاحظ اهتزازات غريبة في السيارة، فأحاط بها وحاول أن يرى من الزجاج، لكن شيئاً كالبخار كان يحجب النظر. أصاخ السمع فوصلته آهات خافتة، فجذب الباب، ورأى الفجيعة بالعينَين اللتين سيأكلهما الدود، ووقف مبهوتاً مدحوراً، وقد انتصبت الشعيرات الصغيرة في رأسه

وعلته صفرة كصفرة الموت، مرقت إلى الداخل، وفهم كل شيء.

من بلغ الخبر؟ جرينا في الصباح الباكر ورأيناه يتدلّى من فرع شجرة الصفصاف، كان العرق مجمّداً فوق وجهه الأزرق. درنا به ولم نستطع أن نقترب منه. جاء المقدّم الذي بعث للدرك وهشّنا بعيداً، حتى أخته التي أغمي عليها في الطريق مرّتين لمّا وصلت أبعدها المقدّم وساعده بعض الناس، فحملوها إلى حيث لا تراه، أما عمر، أخوه، فقد غطّى وجهه بيديه وانهمرت الدموع من عينَيه، وأحاط بالرخ والسرجان، وأخذوه بعيداً. شرح المقدّم للناس الذين رجوه أن يسمح لهم بإنزال الفقيه إلى الأرض، بأنه لن يستطيع تحمّل مسؤولية ذلك فلا بدَّ أن ينتظروا مجيء الدرك ليأخذوا له صوراً من مختلف الجهات، وحتى إذا أنزلوه فسيعلّقونه مرة أخرى، الصور مهمة جداً في مثل هذه القضية، وسيعاقبون من فعل ذلك. انكتم الناس وانتظروا، وتصبّب العرق من وجوهنا فأحسسنا بالجوع، حتى الذكر بالخير استنفذناه فخضنا في أحاديث أخرى وقد نسينا الفقيه المعلّق فوق رؤوسنا، وتوقفنا كثيراً عند حديث النساء وحكى لنا قائد المزاليط حكاية عرق الفدافدا، لا نعرف كيف ارتبطت مصيبة الفقيه في أذهاننا بزواجه الغريب. سار بعضنا إلى الدوار وقضى حاجات وعاد، وتخيّر الذين يصلّون مكاناً، وصلوا الظهر جماعة، وحين كانوا يهمّون بصلاة العصر، سمعنا صوت سيارة الجيب، فهربنا وتفرّقنا، ثم أخذنا نقترب خطوة خطوة وكلّما التفت دركي جهتنا نهرب. صوّروه، وسألوا المقدّم: من بلغ

الخبر؟ ولم يعرف من ووعدهم بالتقصّي، وحين أرادوا أن يقطعوا الحبل ليسقط الفقيه جرت أخته لتعترضه قبل أن يرتطم بالأرض، فأبعدها الدركي، وسمعنا صوتاً مكتوماً.

قال كبير الدركيين: «عشرون سنة وأنا في هذا الشغل، اشتغلت في مناطق مختلفة، ورأيت أناساً لا حصر لهم معلّقين هكذا، ولكن لأول مرة أرى فقيهاً انتحر»، وردّ عليه آخر: «إن الفقهاء في العادة محصّنين ضدّ مصائب الواقع».

حكاية عرق الفدافدا

كان ف واحد البلاد، امرأة ورجل، كانت المرأة زوينة بزاف، إلى شفتها الغزال مترعاش، وكان الرجل تيغير عليها من نسمة الهوى، وضو الشمس، وكانت المرأة حشومية، وحابسة رجليها في دارها، ما تتكلم حد، ووصل بها حشومها لحد أنها ما تتخرجش إلى كان الفلوس حتى يجري عليه زوجها. كانت هذه المرأة والرجل ماتيولدوش. كالوا بزاف ديال الدوا أماجابش الله، فواحد النهار قالت ليه: راني سمعت بلي كاين واحد الدوا ضربة ببطلة وهذ الدوا متيعرفوهش الناس بزاف، كاين في واحد البلاد بعيدة، سميتو عرق الفدافدا. قسم بالله احتيجيب هذ الدوا ولو يكون تحت الأرض. ركب حمارو وسار في البلدان، وكل من لقاه تيسولوا على عرق الفدافدا، أومكينش لي قال ليه تنعرفوا. ف واحد النهار لقى واحد العطار كبير في السن، وسولو بحال العادة. جوبوا العطار: أنا أوليدي مخليتش شي بلاد على وجه الأرض مادزتش منها أو ماسمعتش بهذ الشي لي تتقول. لاش بغيتيه أوكان؟ قال ليه الرجل لاش بغاه. قال ليه

العطار: شكون لي قالك عليه؟ قال ليه الرجل: امراتي، فجاوبوا العطار: ماتديرهاش مني قلة الصواب، ولكن راه تتضحك عليك، باش تبقى وحدها، وراك عارف، ماكين ما نقول ليك كثر. غضب الرجل أوقال ليه: أنا مراتي تتحشم من الفلوس. المهم أن العطار غدي يقول للراجل: بيني وبينك سبع مثقال ذهب للي كان **كلامي** صح. رجع العطار مع الرجل وقبل ما يوصلوا للبلاد قال للرجل، غدي نوضعك في خرج الشواري، ونخلي ليك منين تشوف، ونغطيك وغدي نوضع السلعة في الخرج الأخر، شوف وسكت. مشى العطار ووقف قدام دار الراجل دق أوخرجت ليه المرأة طلب منها ضيف الله، قالت ليه: مرحبا بضيف الله أودخلاتو. كانت الشتا تطيح، قال ليها: راني خفت على السلعة، خليني ندخل الشواري للبيت. حملت معاه الشواري ودخلوه. وجد العطار في البيت ثلاثة رجالة، واحد تيضرب العود، واحد الدربوكة، واحد جالس جنب المرأة. أوملي تعشاو بداو تيشطحوا ويرقصوا ويشربوا الخمر وقفات المرأة قدام العطار وقالت ليه والله حتى توقف وترقص وتغني بحالنا. وقف العطار وبدا تيغني وهو تيشوف لعين الرجل للي تطل من الشواري وقال:

يا عرق الفدافدا
يامول الدعوة النافدا
سبع مثقال ضامنة غدا
يا المغطي بالشواري

يا المفرش تبندا
شوف يا ولدي شوف
يا للي تتقول مراتي تتحشم من الفلوس

أنـا وهـو

-1-

أن تكتب رواية، وتتبع التفاصيل التافهة، وتصارع الزمن لتأبيد بضع لحظات، هل يمكن أن تجدَ فعلاً أكثر عبثاً من هذا؟ لكن من وقف وسط الخلاء الذي وقفت فيه، أنا وسي معتصم، ولم يتفلسف أو يقول كلاماً غامضاً، لا معنى له، أو يحكي بلا انقطاع لنفسه كالعجائز، فلن يفعل طوال حياته. أقرأ الأوراق، وأنا في الحقيقة أقرأ جنون الوحدة والإحساس بالضياع.

-2-

يبدأ المتخيل حين نشرع في الحديث عن الآخر، لذا فكل ما يمكن أن أقوله عن سي معتصم، يغلب فيه الخيال الواقع. قرأت مرات عديدة النصوص التي تركها لي مبارك مع الأمتعة، ولم أخرج منها بصورة كاملة ومقنعة عن شخصيته. لم يكتب عن نفسه الكثير، وما كتبه يفتقد الصلة بباقي النصوص الأخرى،

ويبقى كجُزر صغيرة معزولة وضائعة، يشطب عليها سي معتصم بخطٍّ أحمر في النهاية. يقول سي معتصم: «لم نحرص أبداً على أن نجتر هذه الحياة الصغيرة المتفسّخة، لم نحشر أنفسنا في كل شيء، ويحلو لنا أن نتغنّى بإحباطاتنا بمناسبة أو غيرها، لم نستحضر نفس الأماكن والصفات والذكريات والسلوكات؛ المقهى، والخمر، والبغايا، والكُتُب، والتسكُّع بلا غاية والخواء، أما تعبنا من هذه الصورة القميئة التي نرى من خلالها مرآة الحياة، ولسنا «إلا قطعة صغيرة من حطامها؟؟». إن صوتنا لن يمتلك **ألق النحن** مهما حاولنا، بل سيمضي أبداً مفصحاً عن فرادته وعزلته، يكاد لا يسمعه أحد».

-3-

لا يمكن أن نتحدث عن الآخر، دون أن نفسح المجال للخيال، والخيال يملأ النقص البدئي العالق، أبداً، بكل علاقة متحقّقة أو محتملة مع الآخر، إذا الآخر عالم من الإمكانات التي لا يمكننا أن نستنفذها. وهذه الرواية التي كان سي معتصم يكتبها ولم تمنحه الظروف فرصة إتمامها بين يدي، إمكانية مفتوحة تتحداني، إن كانت الكتابة والحكي بصفة عامة، هو عملية تفتيت للذات، كتابتها في الآخر الذي هو متعدد في الغالب. أن تحكي يعني أن تسل جسمك في أجسام كثيرة، وتقعد وراءها كإله غائب، ولكن كل شيء في أرضه وسمائه يشير إليه. كيف سأرفع التحدي، وأستعيد لهذه الذات ما تشتت وأدركته الفوضى

المنتظمة للكتابة؟ كتب سي معتصم عن كل شيء، أراد أن يملأ بحكيه قروناً من الزمان، منذ حوالي القرن الثاني عشر الميلادي، حيث وضع فريق من قبيلة جشم العربية أرجلهم هنا، إلى أن أقفر الدوار وأدركه الفنا، وقهره هذا الزمن الطويل. كيف نكتب من خلال تجربة فردية معزولة وقاصرة عالماً متماسكاً؟ يضيف: «كيف نأسر هذه اللحظة التي يولد الحدث في حضنها، في نسيجها الأول، وارتجاجاتها المتتالية، في حضورها الكامل والناقص. هذا العجز هو الذي يحيل ما أكتبه هياكل نخرة مفتقدة لذلك الخيط الرفيع الذي يهبها الحياة، أنضّد النصوص في فضاء الورقة، نصوص لا تستدعي النصوص الأخرى ولا تحاورها، صمت بارد يسود بينها كصمت القبور المتجاورة.. لقد أردت فقط أن تقوم بشيء يجعل حياتك هنا أقل عبثاً وفراغاً، أن تهب معنى لوابل الصور الشائهة، وورطتك اللعبة، وها هي الكلمات تنثال انثيالاً».

-4-

كتب سي معتصم روايته مرتَين، وبدأ في كتابتها للمرة الثالثة من خلالي. تبيّنت المرتَين من خلال شكل الأوراق. كان بعضها جديداً والآخر قديماً، ومن خلال مجموعة من النصوص النافرة، المستعصية التي يصعب أن تجدَ لها مكاناً داخل السياق الثاني الذي اختاره، وأيضاً من خلال طبيعة النصوص نفسها؛ فالأولى عنيفة، توظف صِيَغاً مبالغ فيها، وجملاً قصيرة حادة، لا تكاد

تتبع الحدث المحكي، حتى تنقلب إلى غيره، بينما تسترسل النصوص الثانية في هدوء، بجُمل طويلة تتيح إمكانية الإحاطة بكل جوانب الحدث، وباستثمار معتدل للإيحاءات والصيغ الانفعالية، «.. تتوقف عن الكتابة، تعيد الكتابة بصيغة جديدة، تجد ما كتبته أحسن، وبعد حين سيثقل عليك فتعاود الكتابة مرة أخرى، وهكذا دواليك. لن تستنفد الزمن وأنت تحسّن ما كتبت، لمَ لا يدأب الإنسان طوال حياته على كتابة نص واحد، وحين يموت إذّاك نأخذه منه لنقرأه، ما دام الإنسان كما يقال لا يكتب إلا نصاً واحداً طوال حياته بصيغ مختلفة؟ وأقول أنا بصيغ مشوّهة، لأنه سيموت ولن يكون قد كتبه كما أراد، كل ما هناك أننا كلّما أخذنا الوقت الكافي نكتب أحسن».

سأتعسّف على نصوص سي معتصم وأزعم أنه بالإمكان تصنيفها إلى ثلاثة أنماط من الخطاب: النمط الأول هو خطاب الأنا في تماسها مع الواقع، النمط الثاني هو خطاب الواقع، كما حاول أن يلتقطه من مشاهداته العلنية، ومن فم مبارك كما قال، والنمط الثالث هو خطاب التاريخ وقد حاول أن يعيد صياغته، من خلال بعض الكُتُب التاريخية، التي كان يشير إليها في بعض الأحيان ككتاب **العبر** وكتاب **الاستقصا** وكتاب **البيان المغرب**، والتي تتحدث عن هجرة بعض القبائل العربية إلى هذه المنطقة. كان سي معتصم حائراً بين أن يضمن بعض النصوص التاريخية روايته، أو أن يترك التاريخ كخلفية ينسج فوقها نصوصاً متخيّلة، ولم أستطع تبيُّن الحل الذي ارتضاه في الأخير لأن الطريقتَين حاضرتَين معاً. لن أنصّب نفسي ناقداً وأعلق على النصوص،

ولكنني سأدعها تتكلم من خلال ثلاثة نماذج يمثّل كل واحد منها الأنماط المذكورة.

النموذج الأول:

الطريــق

تتقدّم بك سيارة الأجرة في طريق ضيقة محفورة خالية، تتقدم بك في خفارة الشمس الحارقة والسراب الهارب أبداً، وتمر بدواوير ضائعة مقفرة، بضع أناس في الظلال الفقيرة يتوسّدون حوائجهم وينتظرون بأطفالهم مرور أي شيء ليهربوا فيه، وبهائم نافقة ملقاة بجانب الطريق. هل ستجد أطفالاً؟ هل ستجد حياة؟ وإذا وجدتهم كيف سيكونون؟ وإذا كانت ستنتزع من هذا الخلاء الأحمر الكبير؟ قال لك صاحب التاكسي وهو يحصي النقود إنه كلّما وصل إلى هنا يقسم ألا يعود مرة أخرى، ولكن الأحباب يجعلونه يتراجع...

الحياة انسحبت من كل شيء، تجول بعينَيك، ولا تراها إلّا في الأرواح المعذّبة التي بقيت في الظلال لا تقوى على هشّ الذباب الذي يأكلها، أية صورة للمفارقة تمنحها لتلك العيون شبه المغمضة التي ترقبك، تأتي وهم يرحلون؟

تمرُّ بك الأجساد المتناثرة، ترى الهواء الراكد، وشقوق الأرض، والبيوت التي سدت أبوابها بالطين، وترى الموت فوقك وتحتك، فلا تغفر ما حييت لتلك اللحظة التي جبنت فيها ولم تعد مع سائق السيارة التي جاءت بك.

النموذج الثاني:

المحاسب

يصيح المنادي حتى تنتفخ أوداجه وتتدلّى عيناه من محجرَيهما، وينهي صياحه بحشرجة ثقيلة وكأنه بلع لقمة حارّة خنقت مجاري التنفس في حنجرته. غداً سيأتي المحاسب. واصل الكثيرون سيرهم غير عابئين بمحنة المنادي، فليس لهم ما يحسبه المحاسب. ابتهج البعض لما سيرافق عملية الإحصاء، واشتعلت النار في صدور الذين كبر كل شيء في عيونهم، فعزّ عليهم أن يعطوا فتاتاً منه، لذلك يقيمون الدنيا ولا يقعدونها إلا حين يرحل المحاسب. نصّبوا خيمة كبيرة بيضاء وسط الدوار، وأتوا من عند المدير برخصة ليأخذوا مقاعد من القسم، وأعدّوا كل شيء.

في الصباح كان الهرج على أشدّه، أصبحت الشيخات يتلوين أمام الخيمة، إذ لا يمكن أن تمرَّ مناسبة رسمية أو غير رسمية دون أن تغنّي الشيخات «گولوا العام زين». أصبحت خرفان تشوى وأعدّت أشياء كثيرة ستنقَل سرّاً للمدينة، واصطف رجال الدوار يلبسون أنظف ثيابهم. كظم المحاسب غيظه كثيراً قبل أن ينفجر ويخبط السجلّ الذي لم يدوّن فيه غير الأسماء. حمّر عينيه وهو ينظر في وجه المقدّم الذي كان يعتصر ذاكرته، ليجدَ شيئاً يحصى عند الذين يتقدّمون، ولم يجد غير أرض بور لا تحرث أو أن المعني يكريها. تقدّم الرخ، وأشفق أن ينفطر

قلب الرجل الذي يتحفز في كل مرة، ويشهر القلم في يده، فردّ بفمه الخرب على سؤاله:

- دجاجة سنذبحها غداً.

خلع المحاسب طاقم أسنانه الصناعي، ووقف وهو يلعن الوظيفة التي جعلته في آخر أيامه يرى «كمامير» أهل الدوار، فتدخّل الناس وهدأوا خاطره. قدّمت الشيخات وصلة غنائية صاخبة وجاءوا بكأس شاي وقطعة لحم مشوية، ازدردها الرجل بصعوبة بالغة، وفتح السجلّ من جديد، ووقف حميدة أمامه، واتكأ المقدّم على أذن الحاصي، ووشوش له شيئاً، حدسه حميدة بسرعة وقال:

- عندي خمسة نعاج وبغل، إلا كان على النعاج ما كاين لاش تحسبوهم خذوهم وريحوني منهم، معندي منوكلهم.

استعاذ المحاسب بالله كثيراً، وحرّك فكيه وكأنه يمضغ الفراغ، وهو في الحق يجمع اللعاب ليبصق، لكنه لم يجتمع، فأمر أن يخرجوا. خرج أهل الدوار إلّا الذين عندهم ما يحسبه، وأخرج حتى المقدّم بعد قليل، وبعد العصر دخلت فرقة الشيخات وقدّمت عرضاً خاصاً داخل الخيمة. خرج المحاسب بعده يحمل محفظته الكبيرة، يتمايل لكي يحافظ على توازنه، خرج سعيداً، ولمّا ركب سيارته، وفتح زجاج النافذة بصق هذه المرة.

النموذج الثالث:

اختصار خبر انتقال قبيلة جشم العربية من الجزيرة إلى المغرب الأقصى

يزعم أصحاب الرأي الأول أن الأرض ضاقت بما رحبت في أعين الناس، فقد عدمت الأوقات ولم يبقَ للواحد ما يقيم به أوده ساعة من نهار، وتنكّرت المضارب للناس، ولم يبدُ لسيل الأهوال والمحن أول ولا آخر. انتزع الأب اللقمة من فم ابنه، والأخ من فم أخيه، وجاوز الحدّ بالناس وسع الاحتمال، وبدا لهم الموت قريب المآل، فبرق لهم في عذاب ليلهم القاتم المتخم بالمآتم، خاطر الرحيل فتداولوه بينهم أياماً وقرّ عزمهم عليه.

ويزعم أصحاب الرأي الثاني أنه قد حدثت فتنة ومغاضبة بسبب مصاهرة تمّت بين قبيلة جشم وصاحب الحجاز ومكّة آنذاك، فتحايلوا عليه، واسترجعوا بنتهم بدعوى رؤية أهلها، ولمّا أسدل الليل ظلامه، ودثّرهم بجلبابه، خفّفوا أثقالهم وضاعت في وهاد الصحراء آثارهم.

ويقول الرأي الثالث إنه بعد الهجرة الكُبرى لسالف الزمن، مالت الركبان على الركبان مرة أخرى حتى أنك لن تعثر على عازم على القعود ولو للمحة بصر للسجود. لقد تمكّن الرعب من القلوب، وارتعدت فرائص الجبال الصم في الخطوب، وغدا ذكر حمدان قرمط، سالب الحجر الأسود ومعترض الحجّاج

وقاطع طرق الوهاد والفجاج، يخيف من هم منه على بعد أميال وأميال، فما بالك بالذين بين يديه وتحت سطوته؟

والله عارف على كل حال.

-5-

لن تكون هذه الرواية التي أكتبها على هامش رواية سي معتصم إلا مماثلة للمكان الأصيل لانبثاقها، بلور يرى فيه شيئاً وشيئاً آخر، أأملأ البياض أم أسد الثغرات؟

لمَ ترك سي معتصم روايته؟

لمَ أعطاها لي مبارك مع الأمتعة؟

من سيكتب روايته على هامش روايتي حين سأرحل أنا أيضاً؟

العيـون والسمـاء

«الزرع يموت»، كم من واحد سمعها منه هذا اليوم كان يهذي بها، سارَ في الصباح ودخل وسط الأرض، ورأى الصفرة تبني أعشاشاً صغيرة في جذور النباتات، ورأى هذه ترخي أعناقها على بعضها البعض، لتتهاوى بشكل جماعي. كان يعتقد أن الزرع بإمكانه الصبر لأيام أخرى، ولكن ساعة من عند الغاني تغني أو تتركك للهباء. ملأت الشمس عين السماء. مارس دخل، والزرع يحتاج إلى الماء لتخرج السنابل للنور. سمع أنينها، سمع استغاثتها، سمع صراخاً معذّباً في صدره، كأن تلك الشعيرات الصغيرة النابتة فيه هي التي تحترق وهرب.

توسّد التراب وحدّق في الأفق، خرج من الفراش الذي لم يعد يرى النوم فيه، مرات عديدة في الليل وتطلع للسماء، وفي الفجر يجلس قبالة الأفق، حين تظهر الشمس وتبدأ في الصعود إلى عرش سطوتها، يحس بأنه يسحق في التراب.

لو تمنحه الشمس سنة واحدة، ليبيع المحصول ويحفر البئر، ويشتري الموتور، لو تمنحه سنة واحدة ليقف على رجلَيه

ويبدأ، كيفما كانت البداية، المهم أن يتحرك، أن يصارع الحر، ولا يتفرج هكذا...

يتوسد التراب، حزين، مرهق، بعينَين صغيرتَين أجهدهما التحديق في الشمس، بوجه مريض أكلت نصفه لحية قصيرة مشتّتة، وثياب وسخة لم يعد يختار الموضع الذي يضعها فيه. لم يكن نشازاً، كان أصحاب الأرض البور ينتظرون مثله. يتكدّسون في حانوت الحسين لقتل الوقت، يتفرّجون ولا يلعبون ولا يشترون، فيقسم الحسين في سرّه أن ينفّد ما عزم عليه. يمضي بعضهم يخطُّ حلولاً ويبني أوهاماً لا غد لها. كان نشازاً، لم يكن يعرف كيف يستسلم أو ينتظر مثلهم، وكيف ينهي انتظاره إذا لزم الأمر، فيطلق البهائم لتأكل الزرع ويتدبّر حياته بعد ذلك بأي ثمن.

لو لم تسقط القطرات الأولى، لو لم ينم الزرع وكأنه ينمو بداخله، وتكبر معه آلامه وأحلامه.

لـــيـــل الشـمـــس

-1-

أنت يا كرة من غضب ونار
يا شمس
شقّي طريقك في سماء صدورنا بالأظافر
فبهاك ظلمة حالكة
ونورك غصة قاتلة
يا جسر تعب وأسى. . .

مـن أوراق مصطفـى

6 مارس. . .

العمل قد يقتل كل شيء في الإنسان، وقد يولده من جديد. تمنحني هذه الفكرة الحالة التي أصبح عليها جابر، قال لي: «الزرع تيموت أمصطفى» وخرج يداري دمعه، بما أجيبه وماذا يمكن أن أفعل له؟ خبط الباب وراءه، لم يعطني الفرصة لأجمع شتات الكلمات في فمي. كان متوتراً وقلقاً، وساد بيننا صمت كئيب. حاولت أن أنتزع جابر من العالم الذي يلوذ به، لكني أحسست بعد حين بأن جابراً لم يكن بعيداً عني بالقدر الذي هو عليه الآن. ليس لأني لا أقاسمه درجة الحزن نفسها، فالزرع يموت هنا ونخنق نحن هناك، والحزن لا يفارقنا، حتى أننا لا نعرف أحياناً سببه. ما يجيش في صدر جابر أكثر من الحزن، أكثر من رؤية شهور من العمل والأمل تضيع هدراً في بضعة أيام. المشكل هو ماذا سيبقى لجابر ليجرّبه بعد أن جرّب خيار الأرض والمدينة؟

يتوسّد ذراعه في ظلّ الجدار ويحدّق في فراغ السماء، أسير

إليه، نبقى صامتَين، ماذا يمكن أن أفعل له؟ عرضت عليه أن نشترك في السنة القادمة. يعطي هو الأرض وجهده، وسأحفر له البئر، وأشتري الموتور. لم يرد، قلت له إني أعني جيداً ما أقول، ولا أريد التخفيف عنه، فأنا أحتاج إلى شيء أملأ به الفراغ القاتل، قاطعني:

- خص ميموتش الزرع، خص نعتقوه، إلى مات كيف نقدر نرمي الحب في الأرض مرة أخرى.

- ولكن أش المعمول.

- خاص نوجد حل، المهم ميموتش.

اقترحت عليه أن يذهب عند الحاج بوعزة، فبإمكانه أن يوصل الماء إلى أرض جابر، والمجاري ما زالت هي هي منذ كان يكتريها من الكيال ويحرثها. رفض جابر في الأول، لكني لاحظت بأنه بدأ يفكّر بشكلٍ جدّي في الاقتراح، وقبل أن أتركه وعدته بأن أقرضه ثمن البنزين وثمن كراء الموتور إذا لزم الأمر. المهم أن يوافق الحاج.

سارَ إليه رجاه، زاد في الثمن باستمرار، ولكن الحاج رفض. عاد إليه، قال له: سأقتسم معك المحصول ورفض. حين سار إلى الأرض ورأى أن الزرع الذي بالأطراف مات، جاء وتهاوى فوق رجله وقال له: «أعتقه وخذ المحصول، هو لك، لا تتركه يموت أمامي». كنت أقول له لا تستسلم هكذا، فيجيبني: «الزرع يموت المهم نعتقوه»، ولمّا لم يعد له ما يقدّمه للحاج، جاءني في الليل وبكى وهو يقول إنه كان عليه ألّا يسير

إليه، فهو يريد أن يموت الزرع، فيأخذ الأرض في السنة القادمة، وخرج وهو يردد: «كان علي منمشيش لعندو».

قلت لمحجوبة أن تفعل شيئاً تواسيه، لكن جابر لم يعد يسمع الكلام.

الـرعـب

حين بلغ بن عزوز ما رآه وهو مخطوف ومقطوع النفس، ووثبات قلبه تدفع جسده النحيل للتأرجح قبل أن ينهار تماماً في فراش المرض، كان الليل قد نزل لتوّه ثقيلاً كثيفاً، حتى الذين تعوّدوا أن يبقوا في المزارع إلى أن ينير القمر والنجوم خطاهم، هرولوا عائدين متعثّرين، مخلّفين وراءهم عشرات الدواب الضائعة. هبّت ريح جارفة دثرت الفضاء بالتراب فوصل المتأخّرون في المزارع إلى بيوتهم وكأنهم خرجوا لتوّهم من قبر. في نقطة عصية من الليل توقفت الريح وعمَّ سكون رهيب، حتى الحيوانات التي اعتادت أن تكسر صمت الليل ركنت للسكون. بدأت تدبّ في الجو حرارة لافحة قطعت حركة التثاقل في العيون، وأرسلت العرق سيولاً من الأجساد التي يدعكها الرعب من الآتي. شخصت المآقي، تناطح جدار الظلام السميك، لا ومضة، لا التماعة منفلتة، وجفّت الحلوق. عند البئر يتجمع بضعة أنفار، الله يستر، يدلقون الماء على رؤوسهم، يبلعون بضع جرعات مُرّة. وعندما غالب الفقيه الجديد رعبه وكان سيفجّر الصمت الآسر بالآذان، سبقه جابر وقال من فوق

المسجد كلاماً غريباً وكأنه جُنّ، ونزل ثم جرى نحو المزارع بعد الجلبة التي أحدثها عويل بن عزوز المرعب، حين كان يركض، بل يطير، والأرض تضاءلت تحت رجلَيه، لم تعد هناك لا الأشواك الدامية ولا المطامير السحيقة. فراغ مظلم يبتلع بيسر الخطوات والعويل، يدفع فيه جسده حتى ألقى به وسط الدوار. لقد أحرق جابر كل المزارع. جرينا ورأينا النار تلتهم كل شيء ووقفنا بعيداً وكأننا نقف على حافة جهنم.

لـيـل الشـمـس

-2-

«النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم. غرقى في النار؛ طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار، فهُم بين مقطعات النيران يتجلجلون في مضايقها، ويتحطّمون في دركاتها، ويضطّربون بين غواشيها تغلي بهم النار كغلي القدور. ومهما دعوا صبّ من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، تتقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من الوجنات لحومها، ويتمعط من الأطراف شعورها، بل جلودها. وكلما نضجت بدّلناهم جلوداً غيرها، قد عريت من اللحم عظامهم، فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب، وهي تنش في لفح تلك النيران، وهم مع ذلك يتمنّون الموت فلا يموتون».

لـن أنتظـر

وقفَت بسلّتها، أبعدها الدرك، منذ الصباح يفعلون ذلك كلّما خرجوا أو دخلوا. كانت تريد أن تراه، أن تعرف لم فعل ذلك؟ رجتهم بكل العذاب الذي يحمله وجهها، كانت تبتعد وتقترب من الباب باستمرار، غير عابئة بالشمس الحارقة، وبالكلمات النابية التي لم تسمع مثلها في حياتها. كانت ستعود لو لم يرقّ قلب أحدهم لحالها، حين دخلت، وقفت وسط الحُجرة العارية وتبيّنته بعد حين، متجمعاً وحده في الركن، رفع عينَيه لها، ورأت كما لو أنها تحلم؛ طيف ابتسامة في شفتيه. لم يكن أبداً كما توقعته...

قلت أحتمي بالناس زرعهم أيضاً يموت، ويجب أن نفعل شيئاً عوض الانتظار، ذهبت للمسجد وجدت جماعة هناك، قلت لهم: «إن الزرع يموت»، فرفعوا في أعيننا كلها دهشة. يجب أن نفعل شيئاً، وتبادلوا نظرات بينهم، وانبرى كبيرهم للحديث. قال لي بمرارة وحزن: «الزرع يا بني بيد الله، ماذا يمكن أن نفعل غير الصلاة والدعاء؟»، قاطعته بحدة: «لماذا لا يموت زرع

أولاد الحاج عبدون والحاج بوعزة؟»، ردّ بتأنٍّ وهو يعتصر السبحة في يديه: «مشيئة الله»، وأعرضوا عني.

كنت سأرفسهم. رأيتهم صغاراً أذلاء تفيض أجسادهم بالسخرة والضنك يتمسكون بحبات خشبية، ويتأهّبون منذ ولدوا للموت. جريت عند الحسين، هم شباب لم يقتلهم العجز والانتظار بعد، قلت سيفهمونني. وجدتهم يلعبون الورق، قلت لهم: «الزرع يموت»، وواصلوا اللعب كأني لم أتكلم. فوضعت رجلي في محل اللعب، وكرّرت كلامي وأنا أكاد أجهش بالبكاء، فأزاح صعصع رجلي بقوة وهو يبرطم: «الزرع مات من زمان، كل عام يموت ما الجديد؟»، حكيت لهم ما نويت عليه، فقاطعوني بصوت واحد: «والدرك؟»، رددت: «لنأخذ المحركات ونسقي الزرع، ونتدبّر أمرنا بعد ذلك مع الدرك»، فقال الرخ: «مالي والدرك وأنا لا زرع لي». صحت فيه: «لن تجد حتى التراب لتأكله»، خرجت وكلماته تتبعني: «هو يعني سيقتسم معي المحصول إذا جاء، سنعيش كما عشنا حتى الآن».

صعدت السلَّم، أزحت المؤذّن الذي كان يهمُّ بآذان صلاة العشاء، وصحت بأعلى صوتي، لا أعرف ماذا قلت بالضبط...

«يا ناس الزرع يموت وأنتم تلعبون وتُسبّحون، ماذا ستأكلون غداً؟ لماذا لا يموت زرع أولاد الحاج عبدون والحاج بوعزة وهم منكم؟ ستعطونهم أراضيكم في السنة القادمة برخص التراب.. يا بهائم.. إن الموتورات التي يصعدون بها الماء من عرق جبينكم. يا ناس أفيقوا.. باللّه عليكم أفيقوا.. لن يسقط المطر غداً..».

وضعتِ يداً فوق فمي، تقولين الآن إنها يدك. لم أشعر بك، كنت أراهم تحت يضحكون ويقولون: «جُنّ»، والأطفال يقذفونني بالطوب والحجارة. تملّصتُ منكِ وجريت إلى هناك، وأحسست بأن هناك رجلاً آخر يجري ورائي. نقلت النار من مكان إلى آخر، ما كنت وحدي أستطيع أن أحرق كل الأراضي. تقولين مبارك جرى ورائي، كان ليلتها في الدوار، ربما، ربما، لست نادماً على أية حال، كان عليّ أن أقوم بأي شيء ولا أنتظر أبداً.

معتصم

وحده التعارض الفضّ للأرض والسماء، لنور لا يمكن الإمساك به، ولهوّة مظلمة.

(طرق تلدُ طرقاً، كان المقام قصيراً، ودور الطين المهجورة تتهاوى من تلقاء ذاتها، وتذوب في تراب الأرض، كأن لم ينبت الطين يوماً ويصير حيطاناً دافئة ومأهولة بالناس والقبور يجرفها السيل، وتضيع الشواهد في المجرى، وسيبقى الخلاء بلا أثر للحياة ولا للموت، ماتت الأشجار حتى شجرة الزيتون وشجيرات الصبّار التي بقيت أخذت تنسحب باستمرار داخل الغبار الذي يخنقها، ومات الماء في الآبار وفي النهر. جاءوا جماعات يقصدون وجهة واحدة ومصيراً واحداً وساروا فُرادى إلى وجهات مختلفة. أحبوا هذه الأرض التي لن تذكرهم أبداً وأعطوها عرقهم وفظاظتهم ودمهم. اجتاحهم الجند السائر بين مراكش وفاس في فتن التاريخ التي لا حدّ لها وجرّدهم من كل شيء. حاربوا ولانوا، صار لهم أولياء وأعداء، وتعاقبت

المجاعات، وجاء الاستعمار، وبعده الدرك والقرض الفلاحي والضرائب والانتخابات، وها هم يرحلون يحملون كل سياط الزمن والأحزان في أجسادهم).

بني ملال 1987

عبد الكريم جويطي

ليل الشمس

«طرق تلدُ طرقاً، كان المقام قصيراً، ودور الطين المهجورة تتهاوى من تلقاء ذاتها، وتذوب في تراب الأرض، كأن لم ينبت الطين يوماً ويصير حيطاناً دافئة ومأهولة بالناس والقبور يجرفها السيل، وتضيع الشواهد في المجرى، وسيبقى الخلاء بلا أثر للحياة ولا للموت، ماتت الأشجار حتى شجرة الزيتون وشجيرات الصبّار التي بقيت أخذت تنسحب باستمرار داخل الغبار الذي يخنقها، ومات الماء في الآبار وفي النهر. جاءوا جماعات يقصدون وجهة واحدة ومصيراً واحداً وساروا فُرادى إلى وجهات مختلفة. أحبوا هذه الأرض التي لن تذكرهم أبداً وأعطوها عرقهم وفظاظتهم ودمهم. اجتاحهم الجند السائر بين مراكش وفاس في فتن التاريخ التي لا حدّ لها وجرّدهم من كل شيء. حاربوا ولانوا، صار لهم أولياء وأعداء، وتعاقبت المجاعات، وجاء الاستعمار، وبعده الدرك والقرض الفلاحي والضرائب والانتخابات، وها هم يرحلون يحملون كل سياط الزمن والأحزان في أجسادهم».

مكتبة نوميديا 100
Telegram@ Numidia_Library

لوحة الغلاف للفنان تيودور شاسوريو

ISBN 978-9953-68-922-7
9 789953 689227

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com